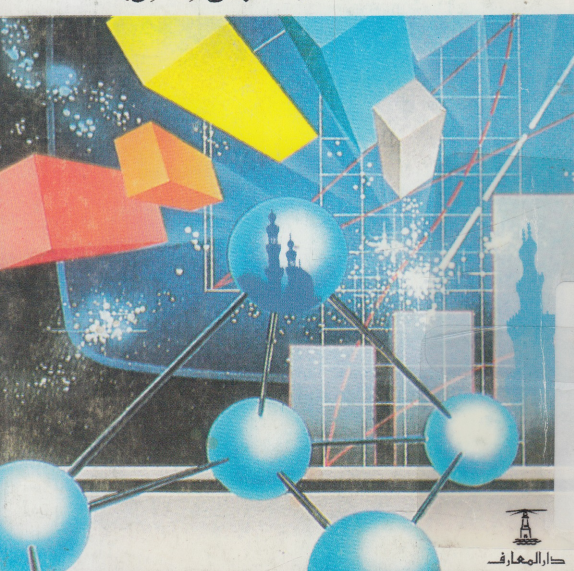
دكتورة عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطئ)

القرآن والتفسير العصرى

(هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ)

اقرأ
سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف



دار المعارف

على مدى أربعة عشر قرناً، لم يكن للأُمَّة الإسلامية ملاذ يحمى بقاءها وتحقق به وجودها غير هذا القرآن.

وفي صراع القوى المعنوية بين الرسلام وخُصومه، لم يعرف تاريخ الإسلام هدفاً لعدوه سوى هذا الكتاب بسلطانه النافذ على ضمير الأمة.

وإذْ لا سبيل إلى تحريف نصه الثابت وتبديل كلماته الموثقة كان هَمُّ أعداء الأُمَّة أن يحتالوا عليها بتأويلاتٍ خَلاَّبة خاطئة، تنجرف بالفهم الرسلامى عن كتابه المُحْكَم، فلا سبيل يُؤَمِّن وجودنا سوى أن يكون فَهمنا لكتاب الله محرراً من كل الشوائب المُقحمة، والبدع المدسوسة، بأن نلتزم في تفسيره ضوابط منهجية تصون حُرمة كلماته، فنرفض بها الزيف الباطل، وفتنة التمويه، وسكرة التخدير.

٤٠٣٦٨٥/٠٢



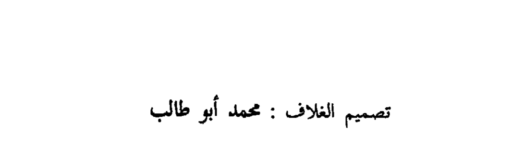


اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٣٣٥]

رئيس التحرير: **رجب البنا**



تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

دكتورة عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطىء)

القرآن والتفسير العصرى

(هذا بلاغٌ لِلنَّاس)

الطبعة الثانية



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

على مدى أربعة عشر قرناً . لم يكن للأمة الإسلامية ملاذ يحمى بقاءها وتحقق به وجودها ، غير هذا القرآن .

وفى صراع القوى المعنوية بين الإسلام وخصومه ، وصراع القوى المادية بين شعوب أمته وأعدائه ، لم يعرف تاريخ الإسلام هدفاً لعدوه — من أى جنس وملة ، وفى أى عصر أو قطر — سوى هذا الكتاب بسلطانه النافذ على ضمير الأمة ، ولوائه الموحد لشملها على تنائى الديار وتباعد العصور وتفاوت الأجيال واختلاف الأجناس والألوان .

وإذ لا سبيل إلى تحريف نصّه الثابت وتبديل كلماته الموثقة ، كان همّ أعداء الأمة أن يحتالوا عليها بتـأويلات خلاّبة تنحرف بالفهم الإسلامى عن كتابه المحكم .

فهل من سبيل يؤمن وجودنا ، سوى أن يكون فهمنا لكتاب الإسلام محرراً من كل الشوائب المقحمة والبدع المدسوسة ، بأن نلتزم فى تفسيره ضوابط منهجية تصون حرمة كلماته ، فنرفض بها الزيف والباطل ، ونتقى أخذة السحر ، وفتنة التمويه ، وسكرة التخدير ؟

ذلك هو ما أحاول هنا أن أتحدث فيه إلى ضمير أمتى ، من هدى القرآن الكريم ، بمنطق العصر وسنة الحياة وعبرة

التاريخ ؛ لتعلم أن ما تسمعه دنيانا من دعوى الحاجة إلى تفسير عصرى غير الذى بينه نبى الإسلام وعرفته مدرسة النبوة ليس إلا نغمة جديدة خلابة ، لاتخطئ فيها ذاكرة التاريخ ، رجع الصدى لما سمعه المصطفى عليه الصلاة والسلام ، من المرتابين فيما أبلغ من آيات رسالته وما بيّن من هداها :

« وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِين لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ، قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ ربى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » صدق الله العظيم

فجأة من حيث لا نتوقع ، يتردد فى أفقنا كلام عن حاجة الناس إلى تفسير عصرى للقرآن يستجيب للتقدم العلمى ، ويتابع ما يستحدث الإنسان من علوم العصر ، وما يكتشف من أسرار الذرة والإلكترون و بيولوچيا القمر . . .

ويسأل سائل : [كيف يمكن أن يتجمد فهمنا للقرآن عند الذى فهمه أسلافنا منذ أربعة عشر قرناً وقد عاشوا بعقلية عصر لم يكن يعرف معنى كلمة بيولوچيا وچيولوچيا وكيمياء عضوية وعلم أجنة وتشريح وأنثروبولوچيا ؟]

وهذا كلام يبدو فى ظاهره منطقيًّا ومعقولا ، يلقى إليه الناس أسماعهم ، ويبلغ منهم غاية الإقناع ؛ دون أن يلتفتوا إلى مزالقه الخطرة التى تمسخ العقيدة والعقل معاً ، وتختلط فيها المفاهيم وتتشابه السبل فتفضى إلى ضلال بعيد .

إلا أن نعتصم بإيماننا وعقولنا ، لنميز هذا الخلط الماسخ لحرمة الدين ، المهين لمنطق العصر وكرامة العلم .

وأول ما يشغلنى من هذه القضية ، هو أن الدعوة إلى فهم القرآن بتفسير عصرى على غير ما بينه نبى الإسلام ، تسوق إلى الإقناع بالفكرة السامّة التى تنأى بأبناء العصر عن معجزة نبى أمىّ ، بعث فى قوم أميين ، فى عصر كان يركب الناقة والجمل

لا المرسيدس والرولز رويس والبوينج وأبوللو ولونا ، ويستضيء بالحطب لا بالكهرباء والنيون، ويستقى من نبع زمزم ومياه الآبار والأمطار ، لا من مصفاة الترشيح ومياه ڤيشي ومرطبات الكولا. . . .

ونتورط من هذا إلى المزلق الخطر ، يتسلل إلى عقول أبناء هذا الزمان وضمائرهم، فيُرسِّخ فيها أن القرآن إذا لم يقدم لهم علوم الطب والتشريح والرياضيات والفلك والفارماكوبيا وأسرار البيولوچيا والإلكترون والذرة. . . فليس صالحاً لزماننا ولا جديراً بأن تسيغه عقليتنا العلمية ويقبله منطقنا العصرى !

هكذا باسم العصرية ، نغريهم بأن يرفضوا فهم القرآن كما فهمه الصحابة فى عصر المبعث ومدرسة النبوة ، ليفهموه فى تفسير عصرى من بدع هذا الزمان .

وباسم العلم . نخايلهم بتأويلات محدثة ، تلوك كلمات ساذجة عن الذرة والإلكترون وتكنولوچيا السدود ، وبيولوچيا العنكبوت وديناميكا الصلب وچيولوچيا القمر ...

وفى ضجيج هذه الكلمات الطنانة الرنانة ، وخلابة ما يقدمه التفسير العصرى من عجائب وغرائب ، تبهر البصر فتتعذر الرؤية الثاقبة التى تميز حقاً من باطل، وعلماً من دجل، وإيماناً من زخرف قول وبهرج بدعة ؛ ويفوتها أن تفصل بين منطق تفكير علمى

وجرأة ادعاء وطبول إعلان . . . .

«وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» .

والعلم فريضة والشهادة أمانة، وكلمة الحق مسئولية وتكليف.

وفى مواجهة التيار الجائح ، أؤدى فريضة العلم وأمانة الشهادة ، لكيلا أبوء بلعنة إثم القلب .

* * *

فى وعيى ومسمعى ، أصداء مماثلة من دعوة سابقة ، بشّر بها فى أعقاب الثورة العرابية دعاة أجانب ، لم يجرءوا على التصدى للقرآن مباشرة ، فاتجهوا إلى لغة القرآن .

وخرجوا على الناس فى أقنعة العصرية والعلمية والتقدمية ، ينادون بأن [هذه اللغة البدوية هى المسئولة عن تخلفنا العلمى والحضارى ، لأنها التى قتلت فينا موهبة الاختراع ، وقضت علينا بالجمود والعقم ، إذ نفكر بلغة أسلاف لنا عاشوا فى عصر البداوة] .

وتصدّى ضمير الأمة لمواجهة تلك الدعوة الأجنبية بالتحدّى والرفض ، فكادت تذهب مع الريح ، لولا أن حمل لواءها دعاة من مثقفينا العصريين ، أنكروا هذه اللغة التى أورثتنا عقليتها القديمة المتحجرة المتبلدة . واشتدت حملة « الأستاذ سلامة موسى » على [الأحافير اللغوية التى ورثناها من مجتمع دينى زراعى إقطاعى ، فلغتنا الرسمية ليست لغة الديمقراطية والأوتومبيل والتليفزيون ، بل هى لغة القرآن وتقاليد العرب ، فلا أمل لنا فى حياة صحية ، مع لغة خرساء تجهل نحو مائة علم وفن ، لايمكن أن نعرفها إلا إذا تركنا لغتنا إلى لغة أخرى] .

ولم تجد الدعوة إلى نبذ [لغة القرآن] صداها ، فكان أن عمد داعية العصرية إلى محاولة جديدة لتطوير معجم لغتنا وأساليبها البدوية ،وقدم نماذج من(اللغةوالبلاغة العصرية) المقترحة لا تبعد كثيراً عن المحاولة العصرية لتفسير القرآن . فتصوّر ، أو صوّر لنا ، أننا ندخل سباق العصر العلمى ، بمجرد أن نستعمل مثلا : [التثاقل الروماتيزمى ، والطاقة الموطرية للكلمات ، ومذهب التطور من أعظم الخمائر الاجتماعية ، والحرب قاطرة التاريخ ، وتجرثمت الفكرة عندى] .

وكما اشتدت حملته على حماة الفصحى [لغة القرآن الموروثة من مجتمع دينى زراعى] ، ورأى فيهم أعداء التطور وكهان العصر [وهم الذين تخصصوا فى درس اللغة العربية ،

فإن تخصصهم ضيق آفاقهم ، فصاروا ينظرون إلى لغتنا كما لو كانت إحدى اللغات المتحجرة فى المعابد . زد على هذا أنهم قد أصبحوا طبقة لهم وضع اقتصادى ووجدان طبقى ، ينهضان على استبقاء العربية على جمودها الحاضر ، ولذلك يخشون التغيير ، ويرون فيه هجوماً على مصالحهم الاقتصادية ، ولكن يجب أن نذكر أن مصلحة الأمة يجب أن تعلو على مصالح أية طبقة فيها][(١)] .

أقول : كما اشتدت حملته على حماة الفصحى والمتخصصين فى العربية ، تشتد الحملة اليوم على احتكار أصحاب التخصص فى الدراسات القرآنية ، وتنشر مجلة صباح الخير ، نداء لزميل من محرريها ، يدافع بنفس المنطق ، وأكاد أقول بنص الكلمات ، عن التفسير العصرى ، ويرجو لى [أن أفكر فى هذه القضية بعقلية المفكر الحريص على مصلحة الأمة ، لا بعمامة المحترف الذى يحرص على مستقبله الخاص ، ويدافع عن اختصاصاته الرسمية التى يأكل منها خبزه] .

* * *

والسؤال الخطير الذى تطرحه القضية هو :

هل نفهم القرآن كما بينه نبىّ الإسلام ، أو كما يفهمه

---

(١) القضية معروضة بمزيد تفصيل ، فى كتابى (لغتنا والحياة) ط معهد الدراسات العربية ١٩٦٩ .

مفسر عصرى ، ندب نفسه لمنصب الفتيا فى العقيدة وجعل من المجلة داراً عصرية لإفتاء المسلمين فى الحلال والحرام ، وأذاع أنه فهم من القرآن [أن جبريل يمكن أن ينزل فى أى زمان ومكان ، على أى نبى من أى عصر وبأية لغة] ؟

فلننظر فى هذا التفسير العصرى ، من حيث هو نموذج ومثال لما يخوض فيه من يتكلمون فى القرآن بغير علم ، وما يتعرض له الفهم الإسلامى من بدع التأويل بالرأى والهوى :

«مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ، كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً » صدق الله العظيم

شعبان : ١٣٩٠ — عائشة عبد الرحمن

أكتوبر : ١٩٧٠ — أستاذ التفسير بجامعة القرويين : المغرب

هذا القرآن

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ
وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .



القرآن الكريم هو معجزة نبوة المصطفى المبعوث بختام الأديان .

وهو كتاب العقيدة الإسلامية .

وسائر أصول شريعتها ، من السنة والقياس والإجماع ، مأخوذة من القرآن الكريم ومستمدة منه ، أصلا أول .

والمذاهب الفقهية تتعدد ، والأصل واحد . والفرق الإسلامية تختلف ، محتكمة دائماً إلى فهمها لكتاب الإسلام ، ومستدلة بنصوص آياته .

وعلى تنائى المكان ، من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، تتفاوت المجتمعات الإسلامية ، وهذا القرآن مناط وحدة هذه الأمه عقيدةً وروحاً وفكراً ومزاجاً .

وعلى تباعد الزمان من غار حراء إلى عصر القمر ، تتفاوت الأجيال فى موقفها من التدين وفهمها لختام الأديان. . .

ويبقى القرآن ثابتاً لا يتغير ، موثقاً لا يمسه أدنى تبديل ولا تتعلق به شبهة من أى تحريف .

* * *

من فجر المبعث ، بدأ توثيق القرآن الكريم : يتلوه المصطفى على صحابته ، ويقرءونه عليه ؛ ويكتبه كُتّاب

منهم ، على ما تيسر من مواد الكتابة ، بإشراف المصطفى عليه الصلاة والسلام وتوجيهه .

كان هناك تنبه مرهف ، إلى ما لحق التوراةَ من تزييف يهود ، وما لحق الإنجيلَ من اختلاف الطوائف المسيحية عليه ، نصاً وفهماً وتأويلا .

وإذ كان القرآن الكتابَ الخاتم للرسالات الدينية ، المصدق لما سبقه من كُتبها ، والمستصفى لما فيها من جوهر الدين الواحد الحق ، فرضت الحاجة إليه ضرورة توثيق نصه ، لتجد فيه البشرية الكلمة الأخيرة للدين ، آمنة من شبهة أى تحريف له أو تبديل .

لم يكتف المصطفى بأن يحفظه الصحابة فى صدورهم ، بل ندب لكتابته عدداً من كُتابهم ، وكان هو الذى يحدد موضع كل آية من سورتها ، بتوجيه الوحى .

وتوفى محمد ، صلى الله عليه وسلم ، والقرآن كله محفوظ فى صدور الصحابة ، مدون على ما تيسر من الرقاع والعسب وألواح الأكتاف ورقاق الحجارة ، وإن لم يجمعه كتاب واحد .

فى عهد أبى بكر ، أول الخلفاء الراشدين ، كانت عملية جمع القرآن من صحفه المتفرقة :

فى حروب الردّة ، استشهد عدد غير قليل من الصحابة

حفظة القرآن، بلغ فى « يوم اليمامة » نحو أربعمائة وخمسين صحابياً[١].

وكان « عمر بن الخطاب » هو الذى سعى سعيه لهذا الجمع : تحدث فيه إلى أمير المؤمنين أبى بكر الصديق، فتردد رضى الله عنه، تحرجاً من أن يفعل شيئاً لم يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم، فلم يزل « عمر » يراجعه فى الأمر حتى شرح الله صدره لذلك.

وتمّت عملية الجمع والعهد بالمصطفى قريب، ونُدب لها « زيد بن ثابت » أحد كتاب الوحى للرسول، وحُفّاظ القرآن الثقات. وأُمِر كلٌ من لديه شىء من الصحف والرقاع أن يقدّمها إلى « زيد » فبلغ من حرصه وتحرجه، أن كان لا يكتفى بمراجعة ما يتلقى من صحف القرآن على حفظه، بل بالغ فى الاحتياط فلم يقبل من أحد آية إلا أن يأتى بشاهدين على أنها كُتبت بين يدى الرسول صلّى الله عليه وسلم.

وأُودِع القرآن مجموعاً فى مصحف، لدى أم المؤمنين « حفصة بنت عمر »

فى عهد الخليفة الثالث « عثمان بن عفان » وُحِّدت قراءة المصحف على حرف واحد. ونُسخت منه نسخ وُزعت على الأمصار الإسلامية، مع الأمر بأن يُحرق ما عداها من

(١) صحيح البخارى : كتاب فضائل القرآن – مع تاريخ الطبرى، حوادث سنة ١١ هـ.

مصاحف ، بإقرار الصحابة ومشورتهم .

قضت بذلك ضرورة طارئة لفتت إلى خطر لم يكن فى الحساب :

كان المسلمون من قبائل العرب قد أذن لهم فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فى قراءة القرآن على عدة وجوه ، تعرف فى المصطلح القرآنى بالأحرف السبعة ، يختلف فيها منطوق ألفاظ من القرآن دون معانيها ودلالتها ، تبعاً لاختلاف لهجات العرب أو لغاتهم ، على وجه التيسير لهم بالقراءة على ما تطوع به ألسنتهم ، كأن يقرأ بعضهم : « كلما أضاء لهم مشوا فيه »[١] ويقرؤها آخرون : سعوا فيه ، أو : مضوا فيه .

ولم يكن اختلاف الأحرف السبعة فى كلمات من القرآن ، يثير أى قلق أو شبهة فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وخليفتيه أبى بكر وعمر . إذ كان المسلمون العرب يعلمون علم اليقين أن الأمر فيه لا يعدو اختلاف لهجات القبائل فى هذا اللفظ أو ذاك ، للمعنى الواحد .

لكن بوادر القلق لاحت بعد أن خرج العرب من جزيرتهم يحملون لواء الإسلام ، وكان أن فتحوا مصر والشام

---

(١) آية البقرة : ٢٠ – وانظر مختلف الأقوال فى الأحرف السبعة ، فى (البرهان فى علوم القرآن) للزركشى ١ / ٢١٣ ط الحلبى ٩٥٧ . و(الإتقان فى علوم القرآن) للسيوطى : ١ / ٥١ ط مصر ١٢٨٧ ﻫ .

والعراق قبل أن يمضى ربع قرن على الهجرة ، وخالطوا شعوبها التى وجدت فى سماحة الإسلام ويسره وإقراره حرية التدين ، ملاذاً من وطأة الفرس والرومان .

عندئذ خيف على الإسلام أن تسمع هذه الشعوب الطارئة على العربية ، قراءة المسلمين العرب للقرآن ، فيظنوا أنهم يختلفون فيه ، باختلاف هذه الأحرف المباح لهم قراءته بها . .

ثم اشتد القلق حين خرج مسلمو الشام والعراق ، مع كتائب الفاتحين ، إلى ما وراء النهر . وقد كان هؤلاء وهؤلاء ، تلقوا القرآن من صحابة تختلف قبائلهم . فحدث أن أهل الشام خطئوا أهل العراق ، وكذلك خطّأ العراقيون أهل الشام ، على مرأى ومسمع من شعوب البلاد التى امتدت إليها راية الإسلام .

روى « البخارى » فى (صحيحه) أن الصحابى « حذيفة بن اليمان » خرج مع جند الشام والعراق فى فتح أرمينية وأذربيجان، فأفزعه اختلافهم على قراءة القرآن ، فلما رجع قدم على الخليفة عثمان فقال له : «أدرك الأمة قبل أن يختلفوا على القرآن اختلاف اليهود والنصارى » .

وتتابعت النذر بأصداء هذا الاختلاف ووقعه، فكان أن استقر الرأى على ضرورة حسمه :

أرسل « عثمان » إلى أم المؤمنين« حفصة » يستأذنها فى أن تخرج إليه المصحف المجموع المودع لديها، لينسخ منه نسخاً ثم يعيده إليها .

وندب أربعة من الصحابة برياسة «زيد بن ثابت» لكتابة المصحف بلغته القرشية التى قرأه بها المصطفى فى العرْضة الأخيرة للقرآن ، فلما فرغوا من كتابة المصحف الإمام ، نسخت منه أربع نسخ – على المشهور – بقيت إحداها فى المدينة ، وأرسلت الثلاث إلى الكوفة والبصرة والشام .

وسوّغ هذا الإجراءَ ، تفاقمُ الخطر من اختلاف المسلمين على قراءته ، وقد زالت الحاجة التى سوّغت التيسير ، بإلف العرب للغة النبى القرشى ، لسان الدين والدولة . .

ويحتمل أن يكون بعض المسلمين قد تحرجوا من هذا الإجراء ، لكن أولى الرأى والمشورة من الصحابة ، كانوا مع « عثمان » فى ضرورة حسم الخلاف .

فى (سنن أبى داود) أن الإمام على كرم الله وجهه قال :

« لا تقولوا فى عثمان إلا خيراً ، فوالله ما فعل الذى فعل ، فى المصاحف ، إلا عن ملأ منا . . . ولو وليت ما ولى عثمان لعملت بالمصاحف ما عمل » .

ونقل « الزركشى » ما روى عن « الإمام على » أنه قال :

« رحم الله أبا بكر ، هو أول من جمع المصحف بين اللوحين . ولم يحتج الصحابة فى أيامه وأيام عمر إلى جمعه على وجه ما جمعه عثمان ، لأنه لم يحدث فى أيامهما من الخلاف فيه ماحدث فى زمن عثمان . ولقد وفق لأمر عظيم ، رفع

الاختلاف وجمع الكلمة وأراح الأمة » [١] .

* * *

بالمصحف الإمام ، لم يعد هناك أى خلاف إلا فى طريقة القراءة للمصحف الواحد ، من حيث المسلك الصوتى وكيفية الأداء لما يحتمله رسم الكلمة . وهذه أيضاً، لم تترك بغير ضابط ، بل عرفت الأمصار الإسلامية من ذلك الزمن المبكر أئمةً من جيل التابعين يرجع إليهم الناس فى إقراء القرآن ، على ما تلقوه من الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكان الناس على رأس المائة الثانية للهجرة ، على قراءة « أبى عمرو بن العلاء» بالبصرة ، و« حمزة وعاصم » بالكوفة ، و«ابن عامر» بالشام، و«ابن كثير » بمكة ، و«نافع» بالمدينة : كلهم ممن اشتهرت إمامتهم وطال عمرهم فى الإقراء ، وارتحل الناس إليهم من البلدان .

وعلى رأس المائة الثالثة اقتصر« أبو بكر بن مجاهد » — شيخ القراء فى بغداد ، ت سنة ٣٢٤ هـ — على القراءات السبع المشهورة ، المنقولة عن الأئمة السبعة :

- عبد الله بن كثير المكى ، مولى القرشيين ، التابعى : وتوفى بمكة حوالى سنة ١٢٠ هـ .

- نافع بن عبد الرحمن بن أبى نعيم المدنى ، توفى بالمدينة سنة ١٦٩هـ .

---

(١) البرهان فى علوم القرآن : ١ / ٢٣٩ .

● عبد الله بن عامر بن يزيد اليحصُبي ، قاضي دمشق: من كبار التابعين، توفى حوالى سنة ١١٨هـ .

● أبو عمرو بن العلاء البصرى ، توفى سنة ١٥٤هـ .

● عاصم بن أبى النَّجود ، أبو بكر الأسدى الكوفى ، توفى بالكوفة سنة سبع أو ثمان وعشرين ومائة

● حمزة بن حبيب الزيات الكوفى ، ت حوالى ١٥٦ هـ .

● أبو على بن حمزة الكسائى الكوفى ، مولى بنى أسد[١] .

والسبب فى اشتهار هؤلاء السبعة دون غيرهم ، أنه لما كثر قُراء القرآن ، نظر الناس فى كل مصر إلى إمام مشهور بالفقه والأمانة وحسن الدين وكمال العلم ، قد طال عمره منقطعاً إلى الإقراء ، وأجمع أهل المصر على عدالته .

وتنقلت القراءات السبع المتفق عليها عبر الزمن بالتواتر ، متصلة الإسناد طبقة عن طبقة ، إلى القراء السبعة الأئمة .

ومهما تختلف هذه القراءات فى طرق الأداء فإنها تلتقى جميعاً فى اتصال إسنادها ، وموافقتها لغة العرب ، والتزامها رسم المصحف العثمانى الإمام .

---

(١) راجع تراجم القراء السبعة الأئمة ، فى كتاب طبقات القراء لابن الأثير الجزرى .

وتتابعت أجيال من المحققين على خدمة القراءات ، وصُنفت كتب فى نَقط المصاحف ، وفى ضوابط الوقف وسائر قواعد التجويد ، على القراءات السبع التى يقرأ بها القرآن اليوم فى البلاد الإسلامية ، على النحو الذى قرأه به الأئمة السبعة بالإسناد المتصل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام .

* * *

على هذا النحو، وُثِّق نص القرآن الكريم بتدوينه فى عصر المبعث، وجمعه من صحفه المتفرقة فى عهد الخليفة الأول، وتوحيد قراءته على رسم المصحف الإمام، فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان .

وضُبطت قراءاته بالتواتر، بالتلقى المباشر عن أئمة القراء، متصلة الإسناد إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

و بهذا التوثيق الذى لايعرف التاريخ له مثيلا ، لم يكن هناك أي مجال لتحريف نصه ، بل سدت كل الذرائع التى يحتمل أن يصل إليه منها أى تغيير أو تبديل ، نصاً ورسماً وقراءة وتجويداً .

لكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى التفسير ، من حيث كان مجالا لاختلاف الفهم باختلاف الظروف والأحوال .

فعلى المدى الطويل ، خضع فهم المسلمين للقرآن لمؤثرات شتى : منها ما قضت به طبيعة الحياة مع اتساع العالم الإسلامى وسير الزمن بشعوبه ومجتمعاته .

ومؤثرات أخرى فرضتها عوامل سياسية ومذهبية لم تجد سبيلا إلى السيطرة على المسلمين ، غير توجيه فهمهم لكتاب

دينهم ، وإخضاعه للأهواء والعصبيات : فكان أن تسللت إلى التفسير القرآنى عناصر دخيلة وشوائب مقحمة ، أخذت قوتها حيناً من إلحاح التسلط على الوجدان الدينى للجماهير ، وحيناً من فتنة الاستهواء وخلابة البدع وسحر التمويه . وتُترك للزمن ، يعطيها من سلطان الإلف وحماسة الوجدان العام ، حرمة تتحدى كل محاولة لتحرير الفهم القرآنى من تلك الشوائب الدخيلة والبدع المقحمة والمدسوسات الخبيثة .

وما كان بالأمس بدعة منكرة ، يمكن أن يصير مع الزمن أشبه بالعقيدة .

وما يريبُنا اليوم من شطط التأويل ومحدثات البدع ، يمكن أن يتسلط على الوجدان الشعبى بالسحر والتخييل ، فلا يلبث أن يرسخ ويتأصل ، ويغدو التصدى لتصحيحه مجازفة خطرة .

* * *

وجذور المأساة غائرة بعيدة ، لا يخطئ التاريخ أن يلمح بذرتها الخبيثة فيما أقحم اليهود على التفسير القرآنى من عناصر إسرائيلية :

مع التحول التاريخى لحركة الدعوة الإسلامية من أم القرى إلى المدينة ، واجه الإسلام عصابات يهود الناشبة فى مستعمراتها بشمال الحجاز ،

ومن عام الهجرة بدأ الجدل فى القرآن ، يتولاه أحبار

يهود الذين تمت تعبئتهم لإعنات نبى الإسلام والدخول معه فى جدل عقيم دون أن يواجهوه بحرب معلنة ، وقد أمنّهم على دينهم وعباداتهم وأموالهم وأنفسهم .

ثم كان أن تعوذ نفر منهم بالإسلام ، ودخلوا فيه ليكيدوا له[١]. وأخذ الذين أسلموا منهم ، مكانهم فى المجتمع الإسلامى، لايستطيع أحد أن ينفيهم عنه وقد شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

والذين أدركوا منهم نبى الإسلام وبايعوه ، عُدّوا من الصحابة الذين ترجع إليهم الأمة فى أمور دينها ، فهم تراجمة القرآن للأجيال التى لم تدرك عصر المبعث ، وهم رُواة السنة : المصدر الثانى للشريعة الإسلامية .

* * *

ومن الجيل الأول للذين أسلموا من يهود ، بدأت تدخل الفهمَ الإسلامى عناصرُ من تأويلاتهم وشروحهم . عُرفت فى المصطلح باسم « الإسرائيليات » .

وكانت الثغرة التى تسللت منها هذه العناصر ، أن القرآن يُجمل غالباً ، قصص القرون الخالية ، تركيزاً على موضع العبرة منها وجوهر الحادث .

وفيه كذلك آيات عن غيبيات ، ما كان المسلمون

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢ / ١٧٤ ط الحلبى .

الأولون ليخوضوا فيها ، ولا علم لهم بشىء منها إلا ماجاء فى القرآن عنها .

وهؤلاء اليهود أهل كتاب . . .

وقد تضخم تراثهم من المقولات الدينية .

وإذ كان الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، لم يسترب عامة المسلمين فيمن أسلموا من يهود ، وألقوا إليهم أسماعهم وهم يتفننون فى سرد حكايات جذابة وتفصيلات مثيرة ، تفسيراً لما اكتفى القرآن بالإشارة إليه . وغلب الوهم ، بأنها من المرويات الدينية لأهل الكتاب ، دون تنبه إلى ما دُسَّ عليها من أسطوريات شُحنت بها العقلية الإسرائيلية فى تيهها القديم وتشردها الطويل .

ولم يحل دون رواج الإسرائيليات ، أن القرآن شهد على يهود بتقولهم على الله وتحريفهم كلماته تعالى عن مواضعها :

ومن أوائل العهد المدنى ، حيث خالط اليهودُ المهاجرين والأنصار ، تتابعت آيات القرآن تحذر المؤمنين من شر هؤلاء المزيفين الأشرار :

« أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » البقرة : ٧٥

«وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ» البقرة: ٧٨، ٧٩

«وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» آل عمران : ٧٨[1] .

كما لم يَحُل دون رواج هذه الإسرائيليات . ما رُوى عن المصطفى صلى الله عليه وسلم من حديث فى أقوال أهل الكتاب وموقف المسلمين منها: يسمعونها ولا يعملون بها . كما حذر عليه الصلاة والسلام أمته من قوم « يقرءون القرآن ينثرونه نثر الدقل، يتأولونه على غير وجهه » .

وعُذر العامة أن الإسلام فرض عليهم الإيمان بالأديان السماوية قبله ، وأكد القرآن أنه مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل .وحديث الرسول ، ليس فيه نهى عن سماع

(١) انظر معها آيات : النساء ٤٦ ، والمائدة ١٣ ، ٤١

أقوال أهل الكتاب وإنما النهى عن العمل بها .

وهيهات أن يميز عامة المسلمين ، فيما يسمعون من إسرائيليات ، بين ما هو من أصل التوراة وما هو من تحريف يهود وأسطورياتهم وعقدة ميراثهم من التيه والتشرد والحقد والشر.

ودخلت هذه الإسرائيليات فى كتب التفسير ، مروية عن صحابة يتحرج المسلم من اتهامهم .

وكان لها من موضعها مع الآيات القرآنية ، فى كتب التفسير ، حرمة ومهابة . وبمضى الزمن ، نشبت فى فهم المسلمين للقرآن ، فما استطاعوا أن يتحرروا منها حتى اليوم .

* * *

هنا وقفة لابد منها عند هذه الإسرائيليات :

فلقد يبدو لكثير منا أنه يكفى عرضها على ما نجد من نسخ التوراة ، لنميز ما نأخذ منها وما ندع .

يعنون : أن نقبل تفسير القرآن بالإسرائيليات التى نجدها فى التوراة ، ونتخلص مما عداها من مدسوسات .

وحجتهم فى هذا ، أن القرآن مصدق للتوراة والإنجيل ، بصريح آياته المحكمات .

وأقول : إنه مع الفرض جدلا بأن التوراة وصلت إلينا دون تحريف ، فقد بقى أن الإسلام فى تصديقه للأديان قبله ،

استصفى منها ما رأى للبشرية المتدينة أن تصير إليه ، فيما هو من جوهر العقيدة ومناط الاعتبار .

والذى استبقاه منها موجود فى القرآن .

والذى نسخه مما جاء فيها ، لا يحل أن ندخله على تفسير القرآن ، وإنما يُعْنىٰ به من يشتغلون بتاريخ الأديان والدرس المقارن بينها .

ولمن شاء أن يقرأ أقوال أهل الكتاب فى شروحهم للتوراة ، ولكن ليس لأحد أن يفسر بها القرآن ، لأنه بهذا يقحم عليه ما لم يتعلق بذكره .

فإذا شق علينا أن نفهم أن الدين فى ختام رسالاته قد خاطب البشرية بأسلوب غير الذى كان يلائمها فى عصور خلت ، فإن لنا أن نقرر أن المنهج العلمى ينكر أن نفسر النص بما لا يحتمله لفظه وسياقه .

ومهما يختلف إدراكنا للحكمة العليا فى العدول عن شىء ورد فى كتاب نزل قبل القرآن بقرون ذات عدد ، فما ينبغى أن نفرض على كتاب الإسلام ما لم يأت فيه ، وكأننا بذلك نفرط فى أمانة نصه الموثق ، ونهدر الجهود التاريخية التى بذلت لصيانته بالتوثيق من أى تحريف أو تغيير .

وذلك ما غاب عن أجيال منا ، ظلت تتلقى الإسرائيليات المقحمة على التفسير ، وتفهم بها كتاب الإسلام .

هذه فكرة موجزة عن الإسرائيليات التى دسها يهود على الفهم الإسلامى للقرآن ، من عصر مبكر .

بعدها جاءت العصبيات السياسية والمذهبية ، فتدخلت فى فهم المسلمين للقرآن بما يساير أهواءها .

كما جاءت الفرق الكلامية فأضافت إلى كتب التفسير تأويلها لما تحتج به من آيات القرآن ، فى الخصومة الجدلية العنيفة التى احتدمت بين المتكلمين . . .

إلى جانب ما داخل الفهمَ الإسلامى للقرآن ، من تأويلات لمفسرين من الأعاجم المسلمين ، صحّ لهم علمُ العربية ، لغة القرآن ، وفاتهم ذوقها النقى وبيانها الأصيل .

والمتصلون بالدراسات القرآنية ، يعرفون ما حُشيت به كتب التفسير من إسرائيليات حاول بها اليهود ، ممن دخلوا فى الإسلام طوعاً أوكرهاً ، تطعيم الفهم الإسلامى للقرآن بعناصر إسرائيلية . ويعرفون كذلك ما أقحم عليه من تأويلات جاءت بها الظروف الدينية والسياسية والتاريخية التى تعرض لها المجتمع الإسلامى ، وتفاوت بها المفسرون تبعاً لتباين أذواقهم واختلاف عقلياتهم وأوضاع مجتمعاتهم وأنماط شخصياتهم ، فى ذلك العالم الإسلامى الواسع الذى امتد من أقصى المشرق ، إلى أقصى المغرب ، وتقاسمته ألوان من عصبيات مذهبية وسياسية وإقليمية ، فاقتضى هذا بطبيعة الحال ، أن تَوَارد على القرآن مفسرون

من أنماط شتى وعصبيات مختلفة...

وألف فى التفسير – كما قال الجلال السيوطى : « خلائق اختصروا الأسانيد – التى ترفع المرويات فيه إلى الأئمة – ونقلوا الأقوال تترى . فدخل من هنا الدخيل والتبس الصحيح بالعليل . ثم صار كل من يصبح له قول يورده ، ومن يخطر بباله شيء يعتمده . ثم ينقل ذلك عنه مَن يجيء بعده ، ظانًّا أن له أصلا ، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح ومَن يُرجع إليهم فى التفسير »[1] .

* * *

هل يفهم من هذا ، أن تفسير القرآن كان مباحاً لكل هؤلاء ، من غير قيد أو شرط ؟

كلا ، بل كانت هناك شروط ملتزمة ، لايتهاون العلماء فى ضرورتها للمفسر ، ولا يجرؤ أحد على التصدى للتفسير دون استيفائها .

الدراية بعلوم العربية ، كانت الشرطَ الأول !

وهو شرط لم تكن هناك حاجة إلى تقريره فى العصر الأول ، والقرآن فى بيئة العربية الفصحى .

ثم مع الفتوح الكبرى ، خرج المسلمون من بلاد العرب ، واستقروا فى الأقطار التى فتحها الإسلام ، وخالطوا شعوبها .

(١) الإتقان فى علوم القرآن : ٢/٢٢٦ .

فبعدت الفصحى عن بيئتها الأولى وتعرضت لما قضت به طبيعة الظروف وسنن الاجتماع اللغوى ، من شوائب العجمة واختلاط الألسن . وظهرت آثار من ذلك كله على جيل المولَّدين من العرب الذين ولدوا فى الأقطار المفتوحة .

وتعربت الشعوب الداخلة فى الإسلام ، فاتسع المجال اللغوى للعربية ، فى القرن الأول للهجرة ، من المشرق الآسيوى فى خراسان وما وراء النهر، إلى المغرب الإفريقى حتى ساحل المحيط الأطلسى .

ومن حيث وقف التاريخ مبهوراً يرصد حركة التحول اللغوى لهذه الشعوب ، ويرقب نفوذ العربية إلى المناطق التى عصيت من قبل على الغزو اللغوى للفرس واليونان والرومان ، وقف حملة القرآن يشفقون على لغته من هذه المخالطة المباشرة ، ويرهفون سمعهم لالتقاط ما لم يكن منه بد ، من شوائب العجمة وعثرات اللحن .

واتجهت الجهود، لحماية لغة الإسلام ديناً ودولة، إلى جمع تراث الفصحى الأصيل وتدوينه ، وعكف عليه العلماء، من القرن الثانى للهجرة ، يستخلصون منه للفصحى معجم ألفاظها ، ويستنبطون بالاستقراء والقياس ، قواعد نحوها وتصرفها واشتقاقها ، وخصائص أساليبها فى التعبير والبيان[١] .

---

(١) تفصيل هذا ، فى كتابى (لغتنا والحياة) : العربية فى أقطارها الجديدة ، ص ٥٣ : ٨٣ ط معهد الدراسات العربية ١٩٦٩ .

وكانت علوم العربية صعبة حتى على أهلها .

وعلى مر القرون ، تضخم رصيدها من القواعد والمذاهب والمتون والشروح ، وصار الفقه بها أمراً عسيراً لايدرك إلا بالدراسة المتخصصة الطويلة ، والجهد المضنى .

وكانت العاميات إلى جانبها ، تقوم بحاجات الحياة اليومية ، فتغنى عامة المثقفين عن طلب علوم الفصحى ، وهى العلوم التى وضعت أساساً لخدمة القرآن ، وفهمه بها .

من هنا ، كانت الدراية بهذه العلوم لغة وبياناً ، من أول ما اشترطه علماؤنا فى المفسر .

ما من كتاب فى علوم القرآن ، لم ينص على أن يكون المفسر عالماً بالعربية .

ويروون فى ذلك ، كلمة الإمام مالك :

« لا أوتَى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا »[1] .

بل إنهم أدخلوا علوم العربية أصالة ، فى علوم القرآن ، على نحو ما نجده فى كتابَى « البرهان فى علوم القرآن ، والإتقان فى علوم القرآن » .

وكل الذين عرضوا لقضية الإعجاز ، أجمعوا على أن فقه العربية

(١) البرهان للزركشى : ١ ، ٢١٢ ، والإتقان للسيوطى : ١ / ١٧٩ .

لغة وبياناً ، هو أداة النظر فى الإعجاز .

ويمكن القول بأن جمهرة الكتب المؤلفة فى : مفردات القرآن ، وأقسامه ، وإعرابه ، ومجازه ، وبديعه ، ودلائل إعجازه ... تأخذ مكانها فى المكتبة اللغوية والبلاغية .

وتأتى مع علوم العربية ، سائر علوم القرآن مما لا يتصور أن يتصدى مفسر لتأويله ، وهو يجهل مثلا أسباب نزوله، والمحكم والمتشابه ، وقراءاته ، ورسم المصحف. . .

ثم هو فى حاجة كذلك إلى دراية بعلوم الحديث من حيث كانت السنة مفسرة للقرآن ومفصلة لما أجمل منه ، مع دراية كذلك بعلم التوحيد وأصول الدين ، وأحكام الفقه المستنبطة من الكتاب والسنة .

ولا يستغنى المفسر بعد هذا كله عن معرفة بالفرق الإسلامية واتصال بكتب الكلام ، وعلم بتاريخ الإسلام .

* * *

والمفسرون من السلف ، كانوا من علماء العربية والإسلام ، تجد أسماءهم فى طبقات المفسرين ، وتجدها كذلك فى طبقات اللغويين والنحاة ، أو المحدثين والفقهاء ، أو المؤرخين والمتكلمين .

وما تصدى للتفسير من أصحاب المذاهب والفرق الإسلامية ، إلا أرسخهم قدماً فى علوم العربية والإسلام ، وأبرعهم فى

تخريج الأقوال ومناظرة خصوم المذهب ، حتى ليشق على غير الخاصة أن يهتدوا إلى مسارب التأويل المشتط فى تفاسيرهم : فيقول شيخ الإسلام «الإمام البلقينى» ، إنه استخرج الاعتزالَ من (تفسير الكشاف للزمخشرى) ، بالمناقيش !

وليسوا مع ذلك سواء : منهم من اعتسف التأويل عن حسن قصد ، ومنهم من تورط فى التعصب لمذهبه ، قصدا إلى الكيد للإسلام .

* * *

كيف احتمل الإسلام كل هاتيك الشوائب التى شابت فهمَ أمته لكتاب دينها ، دون أن يخبو فيها نوره ؟

الواقع أن الوجدان الدينى للأمة . ظل يقاوم هذه المدسوسات والمقحمات ، بصفاء الإيمان وإلهام البصيرة .

تهديها فطرتها المتصلة بالقرآن الكريم اتصالا مباشراً ، تتلوه أو يتلى عليها مصبحة ممسية ، فى الحضر والبادية ، فتجد فيه عاصماً من الزيغ والضلال .

ومهما تكن العصور المتطاولة قد باعدت بين القرآن وتفسيره ، لم يخل أى عصر من صوت يحذر الأمة من مدسوسات الإسرائيليات ومقحمات البدع والأهواء ؛ ولا أعوز الأمة فى ليل محنتها ، شعاع من النور يهدى مسراها فى الظلمات .

وكما شهد التاريخ محاولات الكيد للإسلام بعزل أمته عن

نور هداه ، شهد الأئمة الأبرار ساهرين على حراسة لواء الأمة ، وتتابعوا على حمل اللواء جيلا بعد جيل ، عن يقين بأن هذا القرآن هو مناط وجود الأمة ودليل سيرها وسُراها .

* * *

وقد تلقى عصرنا هذا التراث ، بكل ما فيه من شوائب مقحمة وبذور خبيثة ، وكل ما فيه من رصيد قادة الفكر الإسلامى وحملة لواء القرآن .

وكان عليه أن يميز الخبيث من الطيب ، وأن يحرر الفهم الإسلامى مما داخلَه من مدسوسات ، ويحرره كذلك من سموم طائفة من متعصبى المستشرقين أضلهم الحقد فخانوا المنهج العلمى الذى ادعوا فينا أنهم حَمَلته ، وجعلوا من خدمة تراث الإسلام ذريعة لاستهوائنا ، فتسلطوا على فئة منا بفتنة العلمية فكانوا هم الذين نقلوا سمومهم إلى مناخنا الفكرى[١].

---

(١) اقرأ فى هذا الموضوع : (إنتاج المستشرقين وأثره فى الفكر الإسلامى الحديث) للمفكر الجزائرى « مالك بن نبى » مكتبة عمار بالقاهرة ومعه كتابى (تراثنا بين ماض وحاضر) ط دار المعارف ١٩٦٩ .

مع الغزو الاستعمارى فى مطلع العصر الحديث .غشيتنا من صدمة التفوق المادى للحضارة الغربية ما يشبه الدوار .

وفى أخذة الصدمة ، أرهقتنا عقدة الشعور بالنقص التى سهر الاستعمار على ترسيخها فينا، فتصور بعضنا ألا شفاء منها إلا بالانسلاخ من جذور أصالتنا والانتماء إلى الغرب المتفوق الظافر .

وفى الطرف المقابل ، كان فريق منا يتشبث بكل مخلفات الماضى ، فى رجعية ذاهلة عن سير الزمن وتحديات العصر . ووجد هؤلاء وهؤلاء ، مايرهف إحساسهم بالعقدة ، فى مخدرات الغزو الفكرى :

المستغربون وجدوا ملاذهم فيما تسلط عليهم من إلحاح فكرى وثقافى ، أقنعهم بأن شرقيتنا هى سر تخلفنا ، وأن ميراثنا الروحى هو المسئول عن جمودنا ومحنتنا . والآخرون وجدوا مخدر عقدتهم فى اجترار أمجاد ماضينا التى تغنى بها بعض المستشرقين ، فاطمأنوا إلى أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان !

وحين كانت القضية الكبرى المطروحة على الأمة فى صدمتها بالتفوق المادى لحضارة الغرب الحديث، هى أن تأخذ بأسباب العلم لتستأنف خطاها من حيث وصلت إليه فى العصر القيادى للحضارة الإسلامية ، ظهرت محاولة ساذجة لتفسير

القرآن تفسيراً علمانياً. نطمئن به إلى أننا سبقنا عصرنا إلى كل ما يتطاول به الغرب علينا من علوم حديثة !

وقدم «الشيخ طنطاوى جوهرى » تفسيره (الجواهر) فوجدت فيه الجماهير ما يريحها من مهانة الإحساس الباهظ بالتخلف[١].

ثم لم تكد تفيق من أثر هذا المخدر بجهود رواد اليقظة لإصلاح الحياة بالدين، وشحذ طاقتها لتحمل تكاليف وجودها الحر، حتى بغتتها إثر معارك التحرير من مهانة الاستعمار، صدمة الاجتياح الصهيونى لأقدس حرماتنا، فكشفت عن ثغرات الخلل والتصدع فى منطق تفكيرنا ومنهج حياتنا .

وصارت القضية المطروحة، هى قضية وجود ومصير . . .

والذئاب الصهيونية تسرح فى حمانا بوطأة قرصان وخيلاء مستعمر . والوجه القبيح يسفر عن قناعه، ويتمادى فى قحته وطغيانه، متكئاً على تفوقه التكنولوجى وأجهزته الجهنمية .

وخطوات الهبوط على سطح القمر توقظ النيام .

و« سيوز» محلقة فى مدارها العجيب وراء الفضاء الكونى، تتحدى الوهم والخيال . .

وإذ تحاول الأمة أن تستوعب أبعاد الموقف، وصولاً إلى طريق النجاة، ظهر أن الموقع الفكرى، من أخطر مواقع الميدان .

---

(١) لمزيد بيان، اقرأ : (إنتاج المستشرقين) لمالك بن نبى .

وكان على قادة الفكر الإسلامى أن يأخذوا أماكنهم فى هذا الموقع الخطر ، ليضيئوا مسراها بنور الكتاب الذى حققت به وجودها وحمت بقاءها ، ويقدموا لها من قيمه الخالدة ما تواجه به تحديات العصر العلمى ، دون أن يمزقها صراع مفتعل بين العقيدة والعلم ، ودون أن يشغلها جدل عقيم فى قيمة الكتاب الذى جعل الإيمان بالعلم عقيدة وديناً ، وكان لواء الحضارة الإسلامية فى دورها القيادى بالعصر الوسيط .

وكان الظن ألا مجال لمخدر فى هدير العصر ودوامة المعركة ، وإذا بمفسرين عصريين لادراية لهم بعلوم العربية والقرآن ، يتسللون بالمخدر إلى الميدان ، فيتسلطون على الجماهير بتفاسير عصرية تجذب أسماعهم بكلام خلاب عن سبق القرآن إلى نظريات الرياضيات والفلك وعلوم البيولوچيا والجيولوچيا وارتياد الفضاء وغزو القمر ، فما علينا مثلا أن ترتاد روسيا مجاهل الفضاء ، وأن تهبط « أبولو » على سطح القمر ، وأن تنطلق « سيوز » فى رحلتها الجريئة واقتحامها الظافر ، ولدينا من كل ذلك ما يغنينا عن التعلق به والسعى إليه ، وعندنا مفسر عصرى يقدم لنا كل علوم الدنيا ، ويضيف إليها علم الغيب والحياة الآخرة !

* * *

إن تحديات عصرنا ، قومية وحضارية ، هى التى تضعنا

أمام ما يروج فينا من تأويلات عصرية للقرآن، لنحدد موقف الدين والعلم من هذه التأويلات التى تقتحم الغيب وتفتى الناس فى العلم والدين بغير علم ، وتلهيهم بأنباء الجن والشياطين والملائكة ، وتشدهم من صميم معركة الوجود والمصير إلى هذه المعركة الجانبية بجدلها المثار حول فهم القرآن وتفسيره .

وبقدر ما تقسو هذه التحديات، تشتدّ حاجتنا إلى تأمين هذا الموقع الفكرى الخطر، من حيث لا نستطيع أن نسير مع حركة الزمن ودفع التقدم وحتمية التطور ، إذا ظل تأويل كتابنا الأكبر مباحاً لكل ذى هوى أو رأى ، يلوى نصوصه ليًّا، لكى تلبى حاجة فى نفسه .

ومن حيث لا يُتصور ، وموجةُ الإلحاد فى مدِّها الجامح ، والصراع المذهبى فى ذروة احتدامه، أن يترك تفسير كتاب الإسلام بغير ضوابط مقررة ملتزمة ، يعرف بها إنسان العصر كلمة الدين فى ختام رسالاته ، ويطمئن قلبه وعقله وضميره إلى حقيقة هذا الدين وقيمة عطائه ، فينجو من الحيرة التى تنهكه وتضنيه ، إذ يرى تأويل القرآن فى مهب أعاصير الأهواء وخضم الفتنة : «وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » . صدق الله العظيم



القرآن الكريم
بين الفهم والتفسير

«أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا »

صدق الله العظيم

« لا أُوتَى برجلٍ غيرِ عالم بلغة العرب ، يُفسر كتابَ الله ، إلا جعلتُه نكالا » .

الإمام مالك



المقالات التالية ، نُشرت خلاصة منها بأهرام الجمعة فى شهرى مارس وأبريل من عامنا هذا : ١٩٧٠ ؛ رداً لما نُشر فى مجلة صباح الخير من مقالات بعنوان محاولة « تفسير عصرى للقرآن »

وقد تصور الدكتور المفسر ، أنه يعفى نفسه من مؤاخذته على التصدى للتفسير بغير علم ، بمجرد تغيير العنوان ، فجمع مقالات تفسيره فى كتاب مطبوع بعنوان « القرآن ؛ محاولة لفهم عصرى للقرآن » .

وغاب عنه أن العبرة بالموضوع الذى تناوله تناول مفسر عالم ، يؤول النصوص ويفتى فى الدين ، وليس تناول صحافى من كتاب القصص ، يعرض تصوراته الدينية ، ويتخيل ما وراء الغيب ! .

يبدو أننا فى حاجة إلى أن نضع الحدود الفاصلة بين ما يباح وما لا يباح من تأويل كلمات الله فى كتاب الإسلام . . .

بين حق كل إنسان فى أن يفهم القرآن لنفسه ، وبين حرمة تفسيره للناس لا تبيحه لغير ذوى الدراية به . . .

بعد أن شُغلت الأمة بهذا الخلاف الطارئ ، وقيل فيما قيل إن التفسير مباح لكل من شاء .

والقرآن الكريم كتاب المسلمين جميعاً ، يسمعه كل مسلم فيتمثل معانيه ومراميه ، على قدر استطاعته ، وفى حدود فهمه .

بل هو وراء ذلك كتاب الناس جميعاً ، المتدينين والملحدين ، من حيث يجدون فيه الكلمة الأخيرة للرسالات الدينية . ومن حيث لا يعرف التاريخ كتاباً مثله ، غيّر من حياة البشرية ووجّه تاريخها . فمن حق كل إنسان أن يلتمس منه ما يلبى حاجته إلى المعرفة ، ويقدم له عطاء الدين فى ختام رسالاته .

وإذا كان المستشرقون ، من المسيحيين واليهود والملاحدة ، قد عكفوا على فهم هذا القرآن وقدموا منه لقومهم ما فهموه من كتاب هو أصل العقيدة الإسلامية ، ومناط الوحدة الجامعة لأمتها فى دينها وعقليتها المشتركة ومزاجها العام .

وإذا كانوا كذلك ما يزالون حتى اليوم يعكفون على دراسة كل تفسير جديد ليتبينوا متجه الفهم الإسلامى للقرآن .

فالمسلمون أولى بأن يتقرر حقهم ، بل واجبهم ، فى أن يفهموه على قدر استطاعتهم ، وأن يعرضوا عليه ما يشغلهم من قضايا الزمان .

وليس من الضرورى أن يكونوا على دراية بعلوم الإسلام وأسرار لغة القرآن ، بل إن عامة المسلمين لهم مثل هذا الحق ، حين يصغون إلى ما يتلى عليهم من آيات القرآن الكريم ، فيفهمها كل منهم فى حدود إدراكه ومعارفه « وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً » .

ومحاولة فهم القرآن ، لا يمكن أن تتعرض لإنكار أو رفض ، إذا كانت من قبيل التماس عطائه المباح لخلق الله .

على أن تبقى فى نطاقها الخاص المحدود ، فلا تتخذ ذريعة إلى انتحال التفسير بغير ضابط ولاقيد .

ومنذ بدأ تاريخ الإسلام ، كان المسلمون يفهمون من كتاب دينهم ما يلبى حاجات وجودهم ، ويلتمسون منه دليل مسعاهم ونور مسراهم حيثما اعتكر الليل وادلهم الظلام .

وعلى مسار الزمن ، كان هذا القرآن هو الذى يرهف وعيهم وينير بصائرهم . وكان الكتاب الذى يصل إلى الأميين فى مجاهل البيد وقرى الريف ونجوع البرارى النائية عن العمران

وبقدر ما فهموا منه ووعوا ، قاوموا عوادى الضلال وذرائع الضياع . ومهما يكن مستوى فهمهم ، فما أعوزهم أن يدركوا منه ما يحفظ عليهم كرامة إنسانيتهم ، وما يرفضون به البغى والطغيان ، والعبودية لغير خالقهم وحده .

وتتابع الأجيال ، كل جيل خُلق لزمان غير زمان سلفه وخلفه ، وعطاء القرآن غير محظور ولا مقطوع ، يأخذ منه من شاء ما شاء ، دون حجر أو مصادرة .

* * *

لكن الأمر يختلف تماماً إذا اختلط فهم القرآن بتفسيره ، فيتصور بعضهم أن إباحة فهمه لكل الناس ، متعلمين وأميين ، مؤمنين وملحدين ، تعنى إباحة تفسيره للناس دون قيد أو شرط . .

لأن التفسير يقدم للناس فهم المفسر للنص القرآنى . وغير متصور أن يتصدى لتفسير أى نص ، مَن لا دراية له بأسرار لغته وفقه سياقه ودلالاته .

وهذا من المسلَّمات البديهية فى النصوص بوجه عام : يفهمها من شاء كيفما شاء ، لكن تفسيرها للناس والفتيا بها ، مقصور على ذوى الفقه بها والاختصاص .

وهؤلاء أنفسهم ، يتفاوتون بقدر درايتهم بأسرار النص .

نحن المثقفين مثلا ، نستطيع أن نقرأ أى نص قانونى ، وأن نفهمه بالقدر الذى تتيحه لنا عقليتنا ومستوى ثقافتنا ،

ولكن دوائر القضاء والتشريع ، لا تعترف بغير المتخصصين فى القانون ، ولا تجيز لأى مثقف منا ، غير قانونى ، أن يتصدى لإفتاء الناس فى هذا النص ، أو الدفاع به أو الحكم بمقتضاه .

ولا نعلم أن العمل القضائى فى أى مجال : نيابة ومحاماة وقضاء ، أو صياغة ورأياً وفتيا ، يباح لغير المجازين فى القانون .

ويتفاوت القانونيون بمقدار فقههم لأسرار نصوص القوانين ، إلى المدى الذى تقضى فيه محكمة عليا بالبراعة فى قضية سبق الحكم فيها بالإعدام ، مستندة فى نقض هذا الحكم على ملحظ دقيق فى نص القانون ، فات القضاة الذين نظروا فى القضية من قبل ، وأصدروا حكمهم فيها . . .

ومن القضايا ما يحتاج إلى خبرة طبية أو اقتصادية أو فنية لا علم للقضاة بها ، فينتدب الخبراء لفحصها وتقديم تقاريرهم عنها ، ويظل الحكم فى القضية لرجال القضاء وحدهم ، دون الخبراء من الأطباء أو المحاسبين أو المهندسين أو الزراعيين أو غيرهم .

* * *

والأمر أدق من هذا فى القرآن الكريم . .

من حيث لا تصح قراءته ابتداءً ، لمن يتصدى لتلاوته أو تفسيره ، من المصحف مباشرة ، دون التلقى من شيوخ القراءة .

لأن القراءة فى المصحف ، غير متروكة للاجتهاد . كما

يتصور عامة المثقفين ، وإنما هي علم دقيق له قواعده في الضبط والأداء . والمعنى يختل تماماً ، لا بخطإ في الضبط اللغوى أو الإعرابى فحسب ، بل بالوقف حيث ينبغى الوصل ، وبالوصل حيث ينبغى الوقف ، وقد يضيع سر التعبير بالتفخيم أو الإشباع أو المد أو القصر في غير مواضعه .

من هنا كان الحظر التقليدى على طلاب حفظ القرآن : « أن يأخذوه من مصحفى » بمعنى النهى عن أخذ القرآن ممن قرأه في المصحف ، ولم يتلقه تلقيناً بالقراءة المشافهة على شيوخ القراءة ، فيغيب عنه وجه الصواب في التلاوة والأداء .

ولا أحد يحجر على أى إنسان أن يقرأ من المصحف ، ولكن الحجر أن يتصدى بهذه القراءة المصحفية لتلاوته في الناس ، فضلا عن أن يتصدى لتفسيره وتأويل كلماته !

وقد نعلم أن نظم الدولة ، في أى بلد إسلامى ، لا تجيز لقارئ مصحفى أن يتلو القرآن في الناس ، في مسجد أو إذاعة أو مكتب لتحفيظ القرآن أو أى محفل عام ، فكيف بالتفسير لمن لم يصحح قراءته ، فيسوق الآيات — في مقالات صباح الخير ثم في الكتاب المطبوع — سرداً متتابعاً بغير فواصل ضابطة للسياق محددة للمعنى ؟

وكيف يجوز في عاصمة إسلامية أن تنشر هذه القراءة المصحفية ، وفيها خلل الوقف حيث ينبغى الوصل ، وفيها إفساد

للدلالة بضياع ضوابط الابتداء والانتهاء للآيات : تختلط به العبارات فلا يدرى القارئ ماذا فهم المفسر المصحفى من مقاطع الآيات وفواصلها ؟

* * *

وأخرى من وجوه الدقة فى النص القرآن . أن الكلمة لا تعطى دلالتها القرآنية بمجرد الرجوع إلى دلالتها المعجمية التى تتسع لمعان عدة لا يقبلها النص .

ومعروف لدارسى اللغة ، أن الألفاظ يختلف استعمالها من عصر إلى عصر ، ومن بيئة إلى أخرى. ولا وجه لأن نُحمِّل كلمة فى أى نص ، دلالة لا يعرفها عصره ولا مجتمعه .

وإلا جاز لنا مثلا أن نفسر لفظ « قرية » فى آية : « وَمَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ » بدلالة عصرية على أبسط وحدة فى التقسيم الإدارى للمحافظات والمدن والقرى ، وهى دلالة يرفضها اللفظ القرآنى رفضاً باتًّا ؛ وأن نفسر لفظ « ساعة » فى قوله تعالى : «يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ» بدلالتها الاصطلاحية على ستين دقيقة . أو كما قال المفسر العصرى : [مجرد ساعة زمان ، وكأنهم كانوا فى غفوة أو نومة عصارى بعد أكلة ثقيلة] ص ١٦٥ .

وأن نفهم كل الأعداد فى القرآن بدلالتها الرقمية المحددة فى علم الحساب ، فتكون ليلة القدر خيراً من ألف شهر على

التحديد ، لاتزيد عليها شهراً أو بعض شهر . ويكون للمصطفى أن يستغفر إحدى وسبعين مرة . لمن نزلت فيهم آية التوبة ، خطاباً له عليه الصلاة والسلام :

« اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ » .

والمفسر العصرى لا يرى بأساً فى أن يفسر لنا لفظ « يعشو » مثلا ، بلفظ [ينصرف] فى آية الزخرف :

« وَمَنْ يَعشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » .

حين ندرى من لغة القرآن ، فرقاً بعيداً أقصى البعد ، بين الأعشى والمنصرف ، فتفسير أحدهما بالآخر ، ليس إلا خبط عشواء!

ويفسر قوله تعالى لنبيه موسى عليه السلام :

« فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِى ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى » .

بأن [المقصود بالنعلين هما النفس والجسد فلا لقاء بالله إلا بعد أن يخلع الإنسان النعلين : نفسه وجسده ، بالموت أو بالزهد ، والله يصورهما كنعلين لأنهما القدمان اللتان تخوض بهما الروح فى عالم المادة !] ص ١٠٤ .

وذلك ما لاتعرفه لغة القرآن ، من أى سبيل !

* * *

وثالثة من وجوه الدقة فى النص القرآنى ، هى استحالة تفسير صيغة من صيغه أو عبارة من عباراته ، مبتورة من سياقها الخاص فى الآية والسورة ، ومن سياقها العام فى المصحف كله .

على نحو ما فعل المفسر العصرى ، فى استشهاده ببعض كلمات مبتورة من سياقها ، ليأخذ منها دليلا فاسداً وشاهداً يحيله السياق .

كمثل عبارته فى ص ٤٩ ، وقد تكررت فى ص ١٤٥ :
[والله يقول عن كلامه ، عن القرآن : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ »]

بتر الجملة من سياقها ، فحملها على كلام الله ، فى القرآن كله ، وإنما هى فى المتشابه منه فحسب ، بنص الآية :

« هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ »
آل عمران : ٧

ومثل استشهاده بقوله تعالى : « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ

مِنْ خَشْيَةِ اللهِ » لدكّ الجبال يوم القيامة ، مبتورة من سياقها فى قوم موسى :

« ثُمَّ قَستْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوةً ، وإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يتفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ، وإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، ومَا اللهُ بغَافِلٍ عمَّا تَعْمَلُونَ »
البقرة : ٧٤

ولاعلاقة لها إطلاقاً بدكّ الجبال يوم القيامة .

وكثيراً ما يتورّط المفسر العصرى ، فيحمل آيتين أو أكثر على معنى واحد ، ويستشهد بها لأمر بعينه ، وتكون إحدى الآيات فى سياق غير سياق الآية أو الآيات الأخرى .

كمثل سرده ثلاث آيات متتابعة — ص٨٠ — فى شواهد لما يبدو نعمة ، وقد يكون فى الحقيقة نقمة .

وإحدى الآيات — التوبة ٥٥ — فى منافقى المدينة الذين قعدوا عن الجهاد مع المصطفى فى غزوة تبوك .

والثانية — المؤمنون ٥٥ — فى سياق الحديث عن قوم موسى .

والثالثة — آل عمران ١٧٨ — سياقها فى الكفار من قريش !

ويستشهد – في ص ٩٠ –لتحرير النفس من الشهوات بآيتي :

التوبة ١١١ ، والبقرة ٥٤ :

« إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ »

« فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ » .

باتراً سياق الأولى في وعد الله للمجاهدين ، والأخرى في زجر عبدة العجل من بني إسرائيل .

ولا يمكن أن يجتمع المؤمنون المجاهدون ، والكافرون الظالمون ، في سياق واحد ، إلا عند من لا يفقهون .

ويأتي في موضوع « الشورى » – ص١٥٦ – بخمس آيات سرداً ، مبتورة من سياقها ، واثنتان منها فحسب ، يقبلهما موقف الشورى ، أما الثلاث الأخريات :

« وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » . ق : ٤٥

« فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ »

الغاشية : ٢١ ، ٢٢

« وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ »

آل عمران : ٦٤

فلاصلة لها بالشورى من قريب أو بعيد وإنما هى فى حرية الاعتقاد . والآيتان الأولَيان فى الكفار ، والثالثة فى أهل الكتاب !

وهذا الجهل بالسياق ، يتفاقم خطره إذا ما انتحل المفسر العصرى لنفسه صفة المفتى مع جهله بأحكام الفقه والشريعة ، فيفتى الناس فى الحلال والحرام ، بغير ما أنزل الله .

كأن يأتى بآية المائدة :

« فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » — ٣٩ .

ويفتى المسلمين بها ، [بأنها تفسح المجال للعفو عن التائب ، فمن يسرق ويقول صادقاً : تبت ولن أسرق بعد الآن ، يعطى لولى الأمر مجالا لرفع الحد عنه : ومن سرق للجوع أو للحاجة ، لا يصح شرعاً إقامة الحد عليه] — ص ١٧٤

فيُبطل بفتواه إقامة حدود الله ، ويجعل قبول التوبة لولى الأمر ، وهى فى نص الآية لله تعالى ، سبحانه هو الذى يقبل التوبة من عباده !

ويأتى بقوله تعالى : « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ » ، « وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ » ، فيفتى بأننا :

[لو أخذنا الآية بظاهر حروفها دون أن يكون جوهر القضية واضحاً فى الذهن ، فسوف نجد أن الحياة الطبيعية فى زمننا ، زمن المينى جيب والديكولتيه والجابونيز والصدر العريان والشعر المرسل والباروكات الذهب ، أمر صعب . والسير فى شارع مثل عماد الدين أو فؤاد أو سليمان باشا (؟) سيراً مطابقاً لحروف الآية ، هو الأمر العسير] .

وجوهر القضية عنده ، لفهم الآية ، هو أن [مجرد إرسال النظر لاضرر منه ، ولكن الضرر فيما يجرى فى القلب والعقل نتيجة إمعان النظر الخبيث] ٨٦ .

ولم يشرح لنا كيف يمكن التحكم فى القلب والعقل ، إذا لم نسد الذرائع بالغض من البصر كما أمرنا القرآن ؟ بل استطرد فى فتواه فقال ما نصه :

[ونحن قد نرى وجهاً فنهتف بالقلب إعجاباً : الله ! ونقصد الخالق الذى صوّر وليس المخلوق . فلا تكون هذه النظرة حلالا فقط ، وإنما تكتب لنا حسنة !] ص٨٧ .

ومثل هذه الجرأة على الفتيا بالحلال والحرام ، بتحريف كلمات الله عن مواضعها ، ما نشره فى (بوسطجى صباح الخير : العدد ٧٤٤ ، ٩/٤/٦٩) ردا على قارئ استفتاه فى إباحة تعدد الزوجات :

[الواقع أن تعدد الزوجات للمسلم مشروط بشرط صعب ،

بل مستحيل ، هو العدل « فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً »
ويؤكد الله سبحانه استحالة هذا العدل : « وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ ٱلنِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ » إنه الأمر الممكن الذى لا يقدر عليه أحد . إننا مازلنا فى منطقة الزوجة الواحدة ، والإباحة هى إباحة فى الظاهر فقط] .

وجاز عند المفتى العصرى ، اجتماع النقيضين ، فى الأمر الممكن ، الذى لا يقدر عليه أحد .

وتورط ، كعادته ، فى بتر الكلمات من سياقها الذى يلفت إلى تعذر العدل بين النساء ، وينهى الرجال عن الميل كل الميل مع الهوى ، ترفقاً بالمجفوة من النساء :

« وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ ٱلنِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ، وإِنْ تُصْلِحُوا وتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً * وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللهُ وَاسِعاً حَكِيماً » ١٢٩ ، ١٣٠

* * *

ورابعة من دقة النص القرآنى ، تتصل بما يبيحه المفسر العصرى لنفسه ، من وصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه ،

فيقول مثلا : المعمارى العظيم ، والمهندس الأعظم للكون ، [والله هو سائق القطار الذى تفوق قدرته ومهارته مهارة جميع السائقين] ص ١٨٨ . .

حين نتعلم ، نحن تلاميذ المدرسة القرآنية ، من مبادئ علم أصول الدين : « أنه لا يجوز أن يوصف الله سبحانه بغير ما وصف به نفسه » فإذا جاء فى القرآن الكريم أنه تعالى : الغنى والعليم ، لم يجز لنا أن نقول مثلا : الثرى المليونير ، والأستاذ العلامة العبقرى . . . .

وإذا سمى نفسه بالملك ، فليس لنا أن نسميه بالقيصر أو الإمبراطور أو السيد الرئيس !

وإذا قال تعالى إنه « ذُو العَرْشِ العَظِيم » لم يجز لنا أن نقول : ذو التاج والصولجان .

ويقول سبحانه: « يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيدِيهِمْ » فلا يجوز لنا أن نقيس عليه فنقول مثلا : ذراع الله مع أذرعهم أو فوقها . . .

وهذا ما يغيب عن العصريين فيما يتصدون له من الكتابة فى القرآن والإسلام بغير علم ، فتجرى أقلامهم بألفاظ وصفات لله تعالى، ينبو عنها الحس القرآنى ، كسائق القطار ، فضلا عن عدم جوازها بتاتاً فى علم الأصول .

وشبيه بهذا ، تورط المفسر العصرى فى حديثه عن [المعمار

القرآني ، وسيمفونية سورة الفاتحة] — ص ٧ ، ٨ .

ومن قبله تورط الزميل الشاعر « نزار قباني » في مثل هذا حين بدا له أن يكتب إحدى قصار السور القرآنية على نسق الشعر . وفاته أن القرآن قد أصرَّ على نفي وصفه بالشعر ، ردًّا على زعم المشركين أن محمداً شاعر ، وأن القرآن شعر . والله تعالى يقول :

« وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ » .

« فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ، قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ، قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ » .

* * *

وأخطر من هذا كله . أن يُفسر الدكتور العصرى للمسلمين كتاب دينهم ، بنصوص من الإسرائيليات . بعد أن جاهد علماؤنا طويلا لتحرير فهمنا الدينى من العناصر الإسرائيلية التى دسها اليهود علينا ؛ وحرصوا على توجيه الفهم الإسلامى للقرآن بمروياتهم الإسرائيلية ، حين تعذر عليهم أن يحرفوه كما حرفوا التوراة .

يقول فى تفسيره العصرى ؛ رجماً بالغيب :

[إن كل ما جاء عن الجنة والجحيم ما هو إلا ألوان من ضرب المثال ، وألوان من الرمز . وفى العهد القديم يصف أشعيا يوم الرضوان قائلا : يصنع رب الجنود لجميع الشعوب فى هذا الجبل وليمة سمائن ووليمة خمر ويمسح السيد الرب الدموع من كل الوجوه . وفى تراتيل القديس أفرايم : « ورأيت مساكن الصالحين . رأيتهم نقطر منهم العطور وتزينهم ضفائر الفاكهة والريحان . وكل من عف عن الشهوات تلقته الحسان فى صدر طهور »] — ٦٧ . .

ويفسر آية الدخان :

« فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ »

برؤيا يوحنا اللاهوتى :

[« ففتح بئر الهاوية فصعد دخان من البئر كدخان أتون عظيم . فأظلمت الشمس والجو من دخان البئر . وهذا الدخان لايقتل الناس وإنما يعذبهم خمسة أشهر ، وفى تلك الأيام سيطلب الناس الموت ولايجدونه ، ويرغبون أن يموتوا فيهرب الموت منهم » . إنها ظاهرة طبيعية ، يقول عنها القرآن كما يقول يوحنا اللاهوتى] . ص ١٤٢ .

ويفسر الدكتور آية الكهف فى يأجوج ومأجوج ، تخميناً ، بحوار بين المارشال مونتجمرى وماوتسى تونج ، عن المخاوف من غزو الصين للعالم ، بعد أن يصبح سكانها ألف مليون . ثم يستطرد من هذا التخمين فيقول :

[ومع هذا فإنا لو فتحنا الإصحاح العشرين من سفر الرؤيا وقرأنا ما يقوله يوحنا اللاهوتى عن يأجوج ومأجوج ، فإنا نراه يقول نفس المعانى ويشير نفس الإشارات :

« متى تمت الألف سنة يحل الشيطان من سجنه ويخرج ليضل الأمم الذين فى أربع زوايا الأرض . يأجوج ومأجوج ليجمعهم للحرب ، وعددهم مثل رمل البحر »] ص ١٤٥

ويفسر آيات القيامة فى القرآن فيقول :

[ونجد فى رؤيا يوحنا اللاهوتى صورة مشابهة للقيامة — فى القرآن — يقول : ونظرت لما فتح الختم السادس وإذا زلزلة عظيمة حدثت والشمس صارت سوداء كمسح من شعر ، والقمر صار كالدم ، ونجوم السماء سقطت إلى الأرض كما تطرح شجرة التين سقاطها إذا هزتها ريح عظيمة . والسماء انفلقت كدرج ملتف . وكل جبل وجزيرة تزحزحها عن موضعهما]١٤٧ .

ويفسر قوله تعالى : «يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَاوَاتُ » بما نصه :

[وفى ذلك يقول يوحنا اللاهوتى : ثم رأيت سماء جديدة وأرضا جديدة . لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضتا والبحر لا يوجد فيما بعد . .] ١٥٠ .

* * *

فهل يتصور الدكتور المفسر ، أن فهمه للقرآن يكون عصرياً ، حين يفسره برؤيا يوحنا اللاهوتى ؟

فليعلم إذن ، أن يهود القرن الهجرى الأول قد سبقوه إلى هذه العصرية منذ بضعة عشر قرناً ، ودسوا على الفهم القرآنى شحنة من هذه الإسرائيليات التى يراها الدكتور مظهر عصرية ، ويراها المنهج العلمى رواسب مما أقحم على الفهم القرآنى ،

ما تزال ناشبة فى عقلية من يتصورون أنهم علميون ، من أبناء عصرنا الذى اقتحم مجاهل الفضاء !

ووجد المفسر العصرى سبيل الاقتحام لميدان التفسير سهلاً بالعدول عن ظاهر النصوص القرآنية ، إلى مجازيات عصرية لم تسمع بها مدرسة النبوة ولا عهد لنا بها فى لسان العرب ولغة القرآن ،

حين يعلم فقهاء النصوص ، أن تأويل الحقيقة بالمجاز لا يصح بغير قرينة دالّة على قصد العدول عن ظاهر النص وأصل المعنى !

لكيلا تَضِلَّ المقاييس !

« فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ »
قرآن كريم

« ليس كلّ مَن أحبَّ أن يجلس للحديث والفُتيا جلس ، حتى يشاور فيه أهلَ الصلاح والفضل والجهة — الاختصاص — فإن رأوه لذلك أهلاً ، جلس . وما جلستُ حتى شهد لى سبعون شيخاً من أهل العلم أنى موضع لذلك »
الإمام مالك بن أنس



حرص المفسر العصرى على أن ينشر مع مقالات تفسيره بالمجلة ، كل ما تلقى من رسائل الترحيب والتأييد .

وعذره واضح ، فى أن يلتمس من نشر هذه الرسائل ، ما يواجه به موقفى من قضية التفسير العصرى ، فيما نشرت لى صحيفة الأهرام .

وكذلك يعذر الذين خلبهم هذا الأسلوب الجديد ، لايدرون مزالق التعثر فيه والضلال .

ولا أرى أن أشغل أمتى بجدل عقيم حول هذا الخلاف ، بين من يريدون لها أن تفهم القرآن كما يبينه لها مفسر عصرى ، ومن يشغلهم فهمه كما بينه نبى الإسلام وفهمته مدرسة النبوة .

لكنى لا أملك حق السكوت على شبهة خطيرة تضل بها المقاييس وتختل الموازين ، فأدع الناس يقرءون ما نشرته المجلة لأستاذ جامعى – كان يشغل كرسى الأستاذية للفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة – وأترك مقاله يمضى فى الناس ، دون تعليق .

لقد تطوع الأستاذ الدكتور عثمان أمين ، فأفتى بحق الاجتهاد فى تفسير القرآن ، لأى عصرى دون دراسة أو مؤهل . بل إنه بارك كل خطأ يحتمل أن يتورط فيه مثل هذا المفسر ،

وقرر له الأجر من الثواب ، على أى خطأ .

وأنقل نص عبارته – من عدد المجلة رقم ٧٣٦ بتاريخ ١٢/٢/١٩٧٠ – بعنوان : الاجتهاد فى القرآن واجب على كل مفكر : [فرأيي أن القرآن لم ينزل للمتخصصين ، وإنما نزل للعالمين . وأن « ابن عباس » ، وهو حجة التفسير فى زمانه ، لم يدرس الدين فى معهد ، ولم يكن يملك من المؤهلات إلا الفطرة السليمة ، والله يقول فى كتابه : « يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ » والدكتور مصطفى محمود كما يتبين لكل قارئ منصف يملك هذه الفطرة السليمة ، وهو مشكور على هذه المحاولة ، فإن أخطأ كان له أجر المجتهد ، وإن أصاب كان له أجران] .

قرأتها ، فشعرت بأسى عميق :

القضية التى نحن بصددها ، تتعلق بتفسير القرآن ، فكيف ساغ الخلط بين التفسير ، وبين نزول القرآن للعالمين ؟

وكيف تصور ، أن الاجتهاد فى التفسير مباح للعالمين !

كأنه لايدرى أن الاجتهاد فى أى مجال ، إنما يباح لذوى الخبرة به والدراية ، أو « أهل الجهة » بتعبير السلف .

وعصرنا يؤمن بأن أصحاب التخصص ، هم الذين يجوز لهم الاجتهاد ، فهل كان الاجتهاد مباحاً لعامة الناس فى تفسير

القرآن والفتيا فى أحكامه وشريعته ؟

الذى أجمع عليه الأئمة ، أن الاجتهاد فى ذلك محظور على غير العلماء .

ويسرى الحظر على العلماء، فيما هو من الغيبيات ،أو المتشابه، ويحظر عليهم التفسير بمجرد الرأى ، دون استناد إلى شاهد ودليل ، من صريح النص أو القياس .

ونص عبارة السيوطى فى (الإتقان) :

« أما ما يجرى مجرى الغيوب ، كقيام الساعة . . . وكل متشابه فى القرآن ، فلا مساغ للاجتهاد فى تفسيره ، ولا طريق إلى ذلك إلا بالتوقيف بنص من القرآن والحديث أو إجماع الأمة على تأويله .

« وأما ما يعلمه العلماء ويرجع إلى اجتهادهم ، فهو الذى يغلب عليه إطلاق التأويل . وكل لفظ احتمل معنيين فصاعداً ، فهو الذى لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه . وعليهم اعتماد الشواهد والدلائل دون مجرد الرأى »[١] .

وسبق القول فيما اشترطوا فى المفسر من شروط الأهلية ، فلم يتصوروا قط أن يتصدى للتفسير من أعوزته أدواته ، وجعلوا علوم العربية من علوم القرآن التى لايجوز أن يجهلها

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن : ٢/ ٢١٦.

مفسر . ونقلوا فى ذلك كلمة الإمام مالك :

« لا أُوتَى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كلام الله إلا جعلته نكالا » .

ومن أئمة السلف ، من تشددوا فى موقفهم من إباحة الاجتهاد فى غير الغيبى والمتشابه ، للعلماء أنفسهم ، فألزموا المجتهد باعتماد الشواهد والدلائل ، حتى يَتَّقِىَ التفسير بمجرد الرأى ، وهو عندهم غير جائز . قالوا :

« ولا يجوز تفسير القرآن بمجرد الرأى ، والاجتهاد من غير أصل . قال تعالى : "وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ" وقال : " وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ". وقال صلى الله عليه وسلم : من تكلم فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ »[١] .

بمعنى أنه أخطأ الطريق إليه .

قال تعالى : " وأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ " .

« فما وردِ بيانه عن صاحب الشرع ففيه كفاية عن فكرة مَن بعده . وما لم يرد عنه بيانه ، ففيه حينئذ فكرة أهل العلم

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى .

بعده . ليستدلوا بما ورد بيانه على ما لم يرد »[١].

وخلاصة أقوالهم فى النهى عن التفسير بالرأى : أنه التفسير من غير حصول العلوم التى يجوز معها التفسير ؛ وتفسير المتشابه الذى لا يعلمه إلا الله ؛ والتفسير المقرِّر للمذهب الفاسد ، بأن يُجعل المذهب أصلا والتفسير تابعاً . فيرد إليه بأى طريق ؛ والتفسير بالاستحسان والهوى . . .[٢].

بل إنهم لفتوا ، مع ذلك ، إلى خطر التفسير بالرأى ، مع صحة الطريق إليه . فقد يحتمل اللفظ معنيين ، فيحتاج حمله على أحدهما « إلى معرفة أنواع من العلوم : التبحر فى العربية واللغة . ومن الأصول ما يدرك به حدود الأشياء وصيغ الأمر والنهى والخبر ، والمجمل والمبين ، والعموم والخصوص ، والمقيد والمحكم ، والمتشابه والظاهر والمؤول ، والحقيقة والمجاز والصريح والكناية . ومن الفروع ما يدرك به الاستنباط .

« هذا أقل ما يحتاج إليه ، ومع ذلك فهو على خطر ، فعليه أن يقول : يحتمل كذا ؛ ولا يجزم ، إلا فى مُحكم اضطر إلى الفتوى به ، فأدّى اجتهاده إليه » .

وأكاد أسمع من يرفض أن نحتج بهذه المبادئ المنهجية ، ننقلها من تراث عصور غبرت ، لنأخذ بمبدأ الأستاذ الجامعى فى إباحة

(١ ، ٢) الإتقان : ٢ / ٢١٦ .

الاجتهاد لمن شاء وله أجره ، أخطأ أو أصاب !

وأقول : إن عصرنا لا يمكن أن يزدرى مبدأ من مبادئ المنهج لأن عصوراً غابرة سبقت إليه . والدكتور عثمان أمين فيما أعلم ، قد شغل نفسه بمنهج ديكارت ، وبما فهمه من منهج الشيخ محمد عبده ، وليسا من أبناء هذا الزمان ! . .

و « ابن عباس » الذى احتج به لإباحة التفسير دون دراسة أو مؤهل ، هو ابن عم المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وصاحبه ، وأحد كُتّاب الوحى .

فهل صحيح أنه [لم يدرس الدين فى معهد ، ولم يكن يحمل من المؤهلات للتفسير إلا الفطرة السليمة] ؟

الذى أعلمه ويعلمه تاريخنا ، أن ابن عباس درس الدين الإسلامى فى «مدرسة النبوة » وكان نبى الإسلام نفسه ، هو معلمه فى هذه المدرسة !

وكان يملك مؤهل الصحبة للمصطفى المبعوث بدين الإسلام ، ويملك معها : أهلية كتابة الوحى ، ونقاء عربيته ، وأصالة فصاحته ! فلم يكن بحيث يفوته العلم بالقرآن ، أو تغيب عنه أسرار لغته وبيانه ، أو يخلط بين المحكم منه والمتشابه ، ولا بين المطلق والمقيد ، والعموم والخصوص ، والصريح والمؤول ، والحقيقة والمجاز . . .

وكذلك كان السابقون الأولون من الصحابة رضى الله عنهم :

تلقوا القرآن مباشرة من المصطفى ، ودرسوا الدين الإسلامى فى مدرسة النبوة ، والتحقوا بأول معهد عرفه تاريخ الإسلام : « المسجد النبوى فى دار الهجرة » .

وبصحبتهم للمصطفى ، كانوا المرجع الأول بعده ، عليه الصلاة والسلام ، فى قراءة القرآن ، وترتيبه ، وسائر علومه ، كما أخذوها مباشرة عن مبلّغ هذا القرآن .

وبالدروس التى تعلموها من المصطفى ، وحضروها فى مسجد المدينة ، كانوا المراجع الأصيلة للسنة النبوية من : قول ، وعمل ، وتقرير . . .

وبأصالتهم فى الفصحى وعراقتهم فى العربية ، كانوا معلمى جيل التابعين ، ومصدر توثيق لنصوص الفصحى من عصر صدر الإسلام وأواخر الجاهلية ، حين احتاجت الأمة إلى جمع تراث العربية وتدوينه ، كى يستنبط منه علماؤها معجم ألفاظ الفصحى وقواعد نحوها وأساليب بيانها .

ولم يكن الصحابة ، مع ذلك ، على مستوى متماثل من الدراية والفقه ، بل تفاوتت منازلهم وطبقاتهم .

فى عملية جمع القرآن ، كانت صفوة من حُفاظهم وكُتاب

الوحى منهم ، هى التى نُدِبت للعمل الجليل مع التفرغ والاختصاص .

وفى جمع أحاديث المصطفى — عليه الصلاة والسلام — كان علماء الحديث يشترطون لصحته : اتصال إسناده برواية العدل الضابط عن العدل الضابط إلى أن يصل الإسناد إلى التابعين ، فالصحابة ، عن رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وكانوا مع ذلك يميزون بين الأسانيد ، ولم نسمع قط أنهم سووا بين رواة الحديث ، بل الذى نعرفه من مبادئ علوم الحديث ، أنهم أنزلوهم منازلهم من العدالة والضبط ، بأدق المقاييس للجرح والتعديل .

فكيف تختل مقاييسنا العصرية ، فنحتج لإباحة التفسير ، بأن « ابن عباس » لم يدرس الدين فى معهد ، ولم تكن لديه مؤهلات للتفسير غير الفطرة السليمة ؟

كأن مدرسة النبوة ليست معهداً نعترف به لدرس الدين !

وكأن المسجد النبوى لم يعرفه التاريخ ، المعهدَ الإسلامى الأول !

وكأن صحبة المصطفى ، وكتابة الوحى ، وأصالة العربية ، لا تدخل فى مؤهلات ابن عباس لتفسير القرآن !

* * *

القرآن نزل للعالمين . ولم ينزل للمتخصصين

لكن تفسيره ليس مباحاً لكل الناس ، والاجتهاد فيه محظور على غير العلماء .

بل إن قراءته ليست مباحة للعالَمين ، يقرؤه كل فرد باجتهاده ، وإنما أجمعت الأمة على قراءات سبع ، لأئمة من المتخصصين يفصلنا عنهم بضعة عشر قرناً .

وعلى تتابع الأجيال ، يلتزم المسلمون هذه القراءات ، لايحيدون عنها باسم الحرية ، ولايرفضونها بشعار [يسقط الجمود والاحتكار] !

* * *

والأمر كذلك فى الفقه الإسلامى المستمد من نصوص القرآن والسنة وما يقاس عليهما :

الإسلام ديننا جميعاً ، والقرآن نزل لنا جميعاً .

لكن باب الفقه لم يكن قط ، ولن يكون أبداً ، مفتوحاً لكل العالمين الذين نزل لهم القرآن !

ولم يترك الأمر فيه مباحاً لاجتهاد غير الفقهاء ، ولا عليهم أن يخطئوا فيما لايفقهون !

وإنما انعقدت الإمامة فى الفقه لأئمة أربعة من المسلمين: مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل .

جائز أن يقول فيهم أستاذ جامعى عصرى ، مثل الذى قاله فى ابن عباس : [لم يدرسوا الدين فى معهد ، ولم يكونوا يملكون من المؤهلات إلا الفطرة السليمة]

فاسمعوا أيها الناس :

« الإمام مالك بن أنس » ، الذى أجمع المسلمون على إمامته فما كان لأحد « أن يفتى ومالكٌ فى المدينة » ، لم يصل إلى هذه المنزلة العليا من التخصص الفقهى – أو الاحتكار بمفهومه العصرى الغريب – بغير دراسة مؤهلة .

بل تعلم فى مدرسة ، وسار على منهج ،

وتلقى من شيوخ انقطع لبعضهم سنين دأباً ،

ثم لم يجلس من تلقاء نفسه للفتيا والتدريس ، دون إجازة علمية من فقهاء زمانه : أهل العلم والفضل وجهة الاختصاص .

أما مدرسته ، فكانت « المسجد النبوى بالمدينة » وفى مكان منه حدده المؤرخون : الروضة الشريفة ، ما بين القبر والمنبر .

وفى هذه المدرسة يقول « ابن شهاب الزهرى » أحد شيوخ مالك : « جمَعْنا هذا العلمَ من رجال فى الروضة » .

وعدَّ من هؤلاء الرجال سبعة من فقهاء أهل المدينة المنورة .

على أن « مالكاً » لم يدخل هذه المدرسة إلا بعد أن تأهل لها فى « مكتب تحفيظ القرآن » فأتم حفظه ثم أتقن تجويده ، قراءة على « نافع بن عبد الرحمن » إمام أهل المدينة فى القراءة وأحد القراء السبعة الأئمة !

وأما عن منهج دراسة مالك ، فكان فيما حدده مؤرخوه : يستوعب « كل ما يستعان به على فهم القرآن : من علوم العربية ، وسنن الرسول — عليه الصلاة والسلام — وأحكام القرآن ، وعلومه ، والسيَر والمغازى ، مع قدرٍ من الحساب والرياضيات » .

وأما شيوخه الذين أخذ العلم عنهم ، فهم :

« ربيعة بن أبى عبد الرحمن » الذى اشتهر بربيعة الرأى وقيل فيه : ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة .

و « ابن هرمز الأصم » الذى انقطع إليه مالك سبع سنين لم يخلطه بغيره . وفيه يقول ربيعة الرأى : « ما رأيتَ عالماً قط بعينك إلا ذاك الأصمَّ ، ابنَ هرمز » .

واشتهرت فى بيئتنا العلمية الإسلامية ، وصية ابن هرمز لتلميذه مالك :

« ينبغى أن يورث العالم جلساءه قولَ : " لاأدرى " فإن العالم إذا أخطأ " لا أدرى " أصيبت مقاتلُه » .

ومن شيوخ مالك : « ابن شهاب الزهرى » أعلم الحفاظِ بالحديث .

و « نافع ، مولى عبد الله بن عمر » الملقب بالإمام العلَم ، وأحد رجال الإسناد فى السلسلة التى تعرف بسلسلة الذهب . وفيه قال تلميذه مالك : « كنتُ إذا سمعت حديث نافع عن ابن عمر ، لا أبالى ألا أسمعه من أحد غيره ».

والإمام « جعفر الصادق » الذى تخصه الشيعة بأسرار التفسير ، وتنسب إليه كتاباً فيه كلٌّ ما يحتاجون إليه من علم القرآن .

وغيرُهم كثير ، لا أحصيهم هنا عدًّا .

ونال « مالك بن أنس » إجازته العلمية من أهل الجهة ، أى أصحاب الاختصاص ، فكانت شهادتهم له مؤهلا لأن يجلس فى مدرسة « مسجد المدينة » للحديث والفتيا .

قال : « ليس كلٌّ مَن أحب أن يجلس فى المسجد للحديث والفتيا جلس ، حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل والجهة ، فإن رأوه لذلك أهلا ، جلس .

« وما جلستُ حتى شهد لى سبعون شيخاً من أهل العلم ، أنى موضع لذلك » .

هل يكفى هذا المثل ، إقناعاً بحرمة التخصص وكرامة العلم ، وإنصافاً لأئمة السلف الذين توهم الدكتور عثمان أمين أنهم لم يدرسوا الدين فى معهد ، ولم يحملوا من المؤهلات للتفسير غير الفطرة السليمة ؟

أخشى أن يكون الأستاذ الدكتور مندفعاً فى حماسه للتفسير العصرى ، بسابق موقفى من كتابه فى (الجوانية) حين أنكرتُ منه بدعة « التفسير الجوانى للقرآن » فى مقال لى بالأهرام عقب ظهور الكتاب .

وأستغفر الله لى وله .

* * *



دفاعاً عن منطقِ عصرنا

وكرامةِ عقولنا

«وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِى مِنَ الْحقِّ شَيْئاً * فَأَعْرِضْ عَمَّن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَى » .

صدق الله العظيم

« سورة النجم »

نشرت « صباح الخير » كلمة لكاتب زميل من محرريها ، — ونعنيني هنا القضايا لا الأشخاص — يرجو فيها أن أغير موقفي من التفسير العصري ، [إذا أنا استلهمت في هذه القضية ضمير المفكر المشغول بمستقبل الإنسان ، لا عمامة المحترف المشغول بحماية مستقبله الشخصي ، واختصاصاته التي يأكل منها خبزه] .

وكأنما تصور السيد الزميل، غفر الله له، أنني أحمي كرسي الأستاذية الذي أشرُف به في الجامعة : من منافسة زميله المفسر العصري !

أو كأنه وهم أنني أخشى تنحيتي عن اختصاصي في الدراسات القرآنية وقضايا الفكر الإسلامي ، ليُندب لها المفسر العصري مكاني ، ويدعى بديلا عني أستاذاً زائراً لجامعات المشرق والمغرب !

ما علينا . . .

ولننظر معاً في فتنة هذه العصرية المدعاة والعلمية المغلوطة .

* * *

باسم العصرية ، أقول إن كرامة إنسان العصر تأبى

عليه أن يأخذ العلم ، أى علم ، من غير أهله . وتنكر أن تروج فينا دعوة إلى إهدار قيمة التخصص ، وإنا لنعلم علم اليقين أن عصرنا ما حقق شيئاً من تقدمه العلمى الرائع إلا بإيمانه بالتخصص . وإصراره على وضع الحدود التى تحول دون استباحة أى مجال للمعرفة ، لغير ذوى الخبرة والاختصاص.

وإذا جاز لطبيب أو فلكى أو زراعى ، أن يفسر للناس القرآن بما تيسر له فهمه منه ، جاز لمن يستطيع من علماء العربية وفقهاء الدين قراءة كتاب فى الطب أو الفلك أو الزراعة ، أن يفتى الناس بما تيسر له فهمه منها .

وإذا استباح كل عصرى أن يفسر القرآن للناس برأيه واجتهاده دون علم أو مؤهل ، بدعوى أن القرآن نزل للعالمين ولم ينزل للمتخصصين ، ساغ أن نعطل وظيفة المفتى وقضاة الشريعة ، فلا يحتكروا فقه الإسلام وهو ديننا جميعاً !

وساغ بالمنطق نفسه ، أن نوفر على الأمة ، وهى مثقلة بأعباء التنمية وتكاليف معركة الوجود والمصير ، أعباء كليات اللغة العربية والشريعة والدراسات الإسلامية ، من حيث لاحاجة لنا إلى من يحتكرون التخصص فى هذه العلوم أو يحترفون الفقه بها والفتيا فيها ، والعربية لغتنا جميعاً ، والإسلام دين الأمة كلها ، والقرآن نزل للعالمين !

بل يجوز أن نسد ذرائع الاحتكار والاحتراف ، فلا نسمح

لفئة من علماء القانون أن يحتكروا القانون المدنى ، وآخرين القانون الجنائى ، أو القانون الدولى ، أو الشريعة الإسلامية ؛ كيلا يحجروا على غيرهم من حملة إجازة الحقوق ، ويصادروا حقهم فى حرية الحركة ، ويضيقوا فى وجوههم مجال العمل .

ولكى نأخذهم بمنطق « عمومية الثقافة ، واشتراكية العلم ، وحرية إنسان العصر » فلا يفكروا بعقلية من يدافع عن اختصاصاته الرسمية !

أى تزييف للعصرية يسمح بمثل هذا الإهدار لقيمة التخصص والمسخ لمفهوم الحرية والتقدم ؟

وهل ترانا نحقق عصريتنا ونأمن على مسيرتنا مع رواد الفضاء وغزاة القمر ، إذا نحن تحررنا من منطق زمن مضى لم يكن يسمح لأى مسلم « أن يفتى و مالك فى المدينة » وبادينا بسقوط هذا الجمود والاحتكار ، فأبحنا لمن شاء من العالمين الذين نزل لهم القرآن ، أن يفتح فى إحدى المجلات العصرية داراً للإفتاء فى الحلال والحرام ؟ !

باسم العلم ،

أعلن رفضه لمن يتصدون للفتيا بغير علم ولا مؤهل، ويخوضون فى تفسير القرآن بعلوم عصرنا ، وقصارى ما نعلمه أن أى مفسر منهم ، له تخصص فى علم واحد من هذه العلوم ،

فإن قيل إنه يتحدث فى سائرها بمعارفه العامة ، قلنا إن أى طالب بالمدرسة الثانوية ، له مثل هذا الإلمام العام بعلوم العصر . ولا يعوز فقهاء العربية والقرآن ، هذا القدر من المعارف المتاحة لعامة المثقفين ، وليسوا مع ذلك بحيث يكتبون فى التشريح مثلا بمعارفهم العامة ، وبدعوى عمومية الجسم البشرى الذى هو للناس جميعاً على سواء !

ولا أتردد فى الجهر بأنه لا حرمة فينا لمن لا يحترم العلم ، بل تسقط كل حرمة له بمجرد خوضه فيما لا يعلم ، وجرأته على أن يقول : [أدرى] فيما لا يدرى !

قد أفهم أن يتكلم طبيب فيما يفهمه من آيات قرآنية يمكن أن تتصل بالطب ، وأن يكتب خبير زراعى فيما يفهمه من آيات القرآن فى النبات والفاكهة والزرع ولواقح الرياح .

وأن يلتفت خبير كيميائى إلى آية القدرة الإلهية فى تسوية بنان الإنسان لا يشتبه ببنان غيره من ملايين البشر .

وأن يقف عالم جغرافى عند آية القدرة فى البحرين يلتقيان : هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ، وبينهما برزخ لايبغيان .

وأن يقف عالم فلكى عند آية القدرة فى السماء رفعها الله بغير عمد ترونها ، وما فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار من آيات لأولى الألباب .

قد أفهم هذا كله ومثله معه ...

ولكن الذى لا أفهمه ، وما ينبغى لى أن أفهمه ، هو أن يجرؤ مفسرون عصريون على أن يخوضوا فى كل هذا ، فيخرجوا على الناس بتفاسير قرآنية فيها طب وصيدلة وطبيعة وكيمياء ، وجغرافيا وهندسة وفلك وزراعة وحيوان وحشرات وجيولوچيا وبيولوچيا وفسيولوچيا وتكنولوچيا . . .

إلا أن أتخلى عن منطق عصرى ، وكرامة عقلى فآخذ فى المجال العلمى بضاعة ألف صنفٍ معروضة فى الأسواق !

وإلا أن أتخلى عن كبرياء علمى وعزة أصالتى فأعيش فى عصر العلم بمنطق قريتى حين يفد عليها الباعة الجوّالون بألف صنف ، يروج لها ضجيج إعلانى بالطبل والزمر ، عن كل شىء لكل شىء، أو « بتاع كله » فى فكاهتنا الشعبية الساخرة بالادعاء !

باسم العلم ،

أرفض هذه الرِّدَّةَ العقلية التى ترجع بنا القهقرى إلى دهور غابرة ، فتزين لنا أن نفكر بالمنطق الأسطورى الذى يتلقى فيه إنسان عن ساحرٍ من الجن ، كلمة السر التى تفتح له أبواب الخزائن الموصدة وتبيح له كنوزها الخفية ، فنتصور أن من العصريين مَن يستأثر بكلمة السر ، من مثل : « افتح ياسمسم » فتفتح له خزائن علوم الدنيا والدين ، وتبيح له خفايا الغيب وأسرار الحكمة ، فلا يلبث أن يخرج على الناس

وفى جرابه طرائف وغرائب من كل علوم العصر، ومعها مكتشفات من مجاهل الميتافيزيقا ، وما استأثر الله به من علم الغيب والساعة واليوم الآخر !

أرفض أن يسخر مفسرون عصريون بمنطقنا العلمى - نحن الذين تعلمنا أن نقول : "لا ندرى" حين لا ندرى - فيزينوا لنا أن نقبل تأويلات لهم يزيفونها بقناع العلم ، وأول ما يعيه تلاميذنا من مبادئ العلم ، رفضه الرجم بالظن . وأول ما يدرسون منهج المعرفة ، هو أن القرآن حرر العقل الإنسانى من غرور الخوض فى الغيبيات بغير علم ، وليست مما يخضع لتجربتنا . وإنما حسب المؤمنين منا أن يتوقفوا فيها عند الذى جاءهم به الدين الذى آمنوا به ، أما غير المتدينين ، فحسبهم أن يؤمنوا بالعلم الذى لا يبيح لأحد أن يخوض فيما لا يعلم ، ويحظر القطع بنفى أو إثبات فى مجاهل ميتافيزيقية لم يصل العلم إليها .

وأرانا اليوم نواجه فى عصر العلم ، من ينتحلون الدراية بكل علوم الدين والدنيا ، ومن يخوضون فى الغيب فيفسرون لنا آيات القرآن فى الساعة والقيامة بما لم يأت فيه نص ، ولا كشف عن غيبه علم !

وتبلغ بهم الاستهانة بعقليتنا العلمية ، ومنطقنا العصرى ، أن يتصوروا أن هذا مما يجوز فى عصر العلم :

« وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ

لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئاً * فَأَعْرِضْ عمَّنْ تَوَلَّى عنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحياةَ ٱلدُّنْيَا * ذٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُو أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَى » .

* * *

فماذا عن القرآن الذى يراد لنا ، باسم العلم ومنطق العصر ، أن نفهمه بتفسير عصرى يحررنا من الجمود على فهم الصحابة للقرآن فى مدرسة النبوة وعصر المبعث ؟

ذلك ما يحتاج إلى بيان للناس ، فى مقال يلى . .

بَيْتُ العنكبوتِ !

«مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللهِ
أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وإِنَّ
أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ * إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ
مِنْ شَيْءٍ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَتِلْكَ
ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا
إِلَّا ٱلْعَالِمُونَ» .

صدق الله العظيم

سورة العنكبوت



أستأنف القول من حيث انتهى بى المقال السابق إلى رفض الامتهان لكرامة عقولنا ومنطق عصرنا ، بهذه الردة العقلية التى ترجع بنا القهقرى إلى منطق العصر الأسطورى ، فتخايلنا بكشف المحجوب عن عالم الغيب ، وتدعى امتلاك مفتاح السر لكل علوم الدين والدنيا والآخرة !

أو « بتاع كله » كما تقول العامة بفطرتها السليمة التى لم يفسدها غرور ادعاء العلم بكل شىء !

وأفرغ اليوم لبيان المزلق الخطر ، الذى يتسلل إلى عقول أبناء هذا الزمان بالفكرة السامة ، تنأى بهم عن فهم مدرسة النبوة للقرآن ، وتحملهم على الاقتناع بأن القرآن إذا لم يقدم إليهم أسرار التكنولوچيا والبيولوچيا والأنثروبولوچيا ، والذرة والكمبيوتر والإلكترون . . . فليس صالحاً لزماننا ولا جديراً بأن تسيغه عقليتنا العلمية ، ويقبله منطقنا العصرى .

فماذا اكتشف المفسر العصرى ، من أسرار علمية لما [جاء على لسان ذلك النبى الأمى الذى لم يكن يعرف ، لا هو ولا قومه ولا عصره ، معنى كلمة بيولوچيا وچيولوچيا وكيمياء عضوية وعلم أجنة وتشريح وأنثروبولوچيا] ؟ ص ٤٨ .

وماذا يقدم لعصرنا من تفسير علمى لذلك [القرآن المذهل ،

أتى به رجل أمى لايعرف القراءة والكتابة. . . بدوى راعى غنم فى بيئة بدوية من أجلاف البدو فى صحراء جرداء مقطوعة الصلة بالحضارات والعلوم] ؟ ص ٢١٣ .

ماذا يمن به على أبناء هذا الزمان ، من عجائب [أسرار هذه العلوم التى غابت حتى عن « دارون » لمجرد أنه لم يريد الصانع الخالق المهندس وهى تهندس وتخلق] ؟ ص ٤٧ .

اكتشف لغزاة القمر ، فى آية يس :

« وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ »

أنها [تشبيه حرفى للقمر الذى لاخضرة فيه ولاماء ولاحياة] ص ٥٠ .

لنسمع بعد شهرين من نشره لهذا الاكتشاف ، أن العلماء السوفييت مايزالون يدرسون ما يبدو لهم فى الصور التى التقطتها « لونا » معالم عمران وآثار حياة !

واهتدى إلى [شفرة فواتح السور ، مثل كهيعص ، طسم ، حم ، عسق ؛ مما لم يقل لنا النبى إنه يعلم له تفسيراً] ص ١٩ :

فكان تفسيره العصرى لها [أنها حروف لها معنى فى ذاتها ، وكلمات لها سرها ومدلولها وإن غاب عنا فهمها . وهى علوم علينا سوف نصل إليها فيما بعد] ص ١٩٥ .

وكشف عن سر الخلق من « حمإٍ مسنون » [أنه اتفاق غريب ودقيق مع اكتشافات العلم بعد ألف وأربعمائة سنة] ص ٥١ .

ثم ترك للناس أن يفهموا ما شاءوا ، من اكتشافات العلم عن خلقنا من حمإٍ مسنون !!

واكتشف لما يشغل العصر من نظرية التطور ، تأويلا لكلمات الله : « ٱلَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ » . بصياغة ممسوخة شوهاء لنظرية « دارون » لم يقل بها أى علم ، وترفضها العقيدة الإسلامية ص ٥٣ .

وقدّم إلى عصرنا من قوله تعالى : « أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا »

أنه [لا تفسير لها إلا أن تكون الأرض كروية دوارة ، نصفها ليل ونصفها نهار ، فإذا جاءت الساعة فإن نصف سكانها يكونون فى ليل والنصف الآخر فى نهار .] ص ١٤٦ .

على غير ما فهمته مدرسة النبوة ، وقد جرى لسان العرب على القول : آتيك ليلا أو نهارًا ، فلا يفهم منه إلا

التوقيت الزمنى الذى لا يتعلق بكروية الأرض الدوارة !

واكتشف لعصرنا من أسرار الرياضيات وقوانين الطبيعة فى القرآن ، ما لم يهتد إليه أحد من عصر النبوة إلى ما قبل ظهور التفسير العصرى :

[فمن التوحيد، نشأت كل أعداد العلوم والمعارف] ص١٩٣ .

أما فلسفة العدد ، فيقدمها لنا من تأويل آية المعارج :

« تَعْرُجُ ٱلْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » .

بأن [معنى هذا أن أيام الله هى كما يشاء الله ، فإذا شاء يكون اليوم بألف سنة وإذا شاء يكون بخمسين ألف سنة . فهو ليس خاضعاً لزمنه مثلما نحن خاضعون ، وإنما هو يخلق زمنه . وهذا شرح فلسفى رفيع لمعنى الأبدية أو زمن من لا زمن له] ص ١٣٨ .

ومن آية آل عمران :

« أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ » .

استنبط المفسر العصرى ما لم يخطر على بال أحد قبله ،

[من القوانين الإلهية التى نعرف الآن الكثير منها - ا. :
[قانون الضغط الأزموزى، وقانون التوتر السطحى ، وتماسك العمود المائى ، والتوازن الكهربائى والأيونى فى المحاليل ، وقانون التفاضل الكيميائى بين هورمون وهورمون فيكون أحدهما حاكماً على الآخر : وقانون رفض الفراغ، وقانون الفعل ورد الفعل] ص ٩٨

فأنّى للنّبى الأمىّ أن يعرف هذه القوانين ، فضلا عن أن يبينها للناس ، كما يبينها هذا المفسر العالم ؟

وماذا تبغى الأمة من العصر العلمى ، أكثر من هذا السرد لقوانين الطبيعة والكيمياء ، من الذرة إلى الفلك ؟

وأضاف إلى علم عصرنا بأسرار الإلكترون :

[أنه محاسَب فى حركاته ، فما بال الإنسان العاقل وهو بالنسبة للإلكترون كالمجرة والفلك بالنسبة للإنسان ، وقد نفخ الله فيه من روحه فهو شىء عظيم وليس فى هوان الذرة ولا الإلكترون] . ص ٦٩ .

وأضاف إلى فهمنا لرحلة الحياة تفسيراً عصريًّا يلائم عقلية جيل التليفزيون :

[أنا وأنت وهو وهم ونحن ، كلنا مجرد صور تبرق وتختفى على شاشة الوجود كما تتجمع الصور على شاشة التليفزيون

ثم تتبدد وتزول عند انقطاع التيار . . . ثم تعود فتتجمع صور أخرى عند وصل الكهرباء ، ثم تعود فتزول هى الأخرى]

ص ١٨٣ .

وقدَّم إلى علم الجراثيم والحشرات ، مارآه يليق بعصرنا من رفض السببية بالتوكل : فإذا توكلنا عليه، تعالى، [فلن نخاف الحرب ولا القنبلة ولا المرض ، لأننا أدركنا وحدة الفاعل ، وأنه لا فاعل فى الحقيقة إلا الله . الميكروب لايضر ولكن الله هو الضار النافع . وهو الذى يسلط الأسباب ، هو الذى خلق العقرب والسم والوردة ، وهو الذى ينشر العبير وينشر السم فى العروق . . هو مناط الهلاك ومناط النجاة لا راد لقضائه ولا معقب لأمره ، هو الفاعل الوحيد وكلنا أدواته] ص ١٨٧ .

حين نقول ، نحن تلاميذ المدرسة القرآنية : إن الكون يجرى على سنن مطردة ، وإن إرادته تعالى لا تتعلق بنقض سننه : « لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » .

وكان تفسيره العصرى لآية النمل :

« قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ » .

[أن إدراك نملة لسليمان أمر ممكن ، مثل إدراك سليمان لها !] ١٣٣ .

ولم يخطر على بالنا من قبل ، إلا أن النملة تحس بغريزتها موضع الخطر ، وتحاول تلقائيًّا أن تتقيه ، بهدى الغريزة وإلهام الفطرة !

واكتشف المفسر العصرى لبيولوچيا الحيوان وديناميكا الصلب ، أن القرآن إذ أنَّثَ العنكبوت : «مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنْكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتاً» فذلك من الإعجاز العلمى [لأن العلم كشف مؤخراً أن أنثى العنكبوت هى التى تنسج البيت وليس الذكر . وهى حقيقة بيولوچية لم تكن معلومة أيام نزول القرآن] ص٢١١ .

ويعرف المبتدئون من طلاب العربية ، أن القرآن جرى هنا على لغة العرب الذين أنثوا لفظ العنكبوت من قديم جاهليتهم الوثنية ، كما أنثوا مفرد النمل والنحل والدود ، فلم يقولوا فى الواحد منها ، إلا نملة ونحلة و دودة ، وهو تأنيث لغوى لاعلاقة له بالتأنيث البيولوچى كما وهم المفسر العصرى .

وجرى لسانهم كذلك على تأنيث الشمس والأرض والسماء والدار والسوق ، وكل ما يعرف فى المصطلح اللغوى بالتأنيث المجازى ، دون أن يتصور مَن له أدنى اتصال بالعربية ، أن التأنيث هنا يحمل على التأنيث البيولوچى !

وقبل أن ينزل القرآن بآيات :

« وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً » .

« قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ » .

« كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً » .

« إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحِى أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا » .

كان أى عربى وثنى « من أجلاف البادية » ينطق بها على التأنيث ، فلا نتصور أن فى ذلك إشارة علمية إلى ما اكتشفه عصرنا من بيولوجيا الحيوان !

ثم تورط المفسر العصرى من هذا الوهم، إلى وهم أشنع ؛ فأضاع كل السر البيانى للآية تضرب المثل لأوهن البيوت ببيت العنكبوت ، حين قرر ما وصفه بالحقيقة العلمية :

[وهى أن خيط العنكبوت أقوى من مثيله من الصلب ثلاث مرات ، وأقوى من بيت الحرير وأكثر مرونة] . ص ٢١١

وعلى هذا التفسير العصرى ، لايصلح بيت العنكبوت مضرباً للمثل على الوهن، لأنه ليس أهون من بيت الصلب ، أو من بيت الحرير اتخذته دودة القز !

وقريب من هذا ، تورطه فى تشبيه صلة الإنسان بخالقه، بالحبل السرى :

[والشرك فى الحقيقة أشبه بانقطاع الحبل السرى الذى يفصم الصلة بين الجنين ومصدر حياته . . بين الإنسان والله] ص ٩١ .

وقد يعلم الأميون منا أن الحبل السرى يقطع عقب الولادة، إيذاناً بانفصال الجنين عن رحم أمه . وبدء حياته مستقلا عنها . فهل يكون لنا بأميّتنا العلمية فى التشريح ، أن نفهم بهذا التفسير العصرى ، أن قطع الحبل السرى يبت صلتنا بخالقنا ؟ وهل يكون لأبنائنا فى كليات الطب ، أن يروا فى انقطاع الحبل السرى إيذاناً بالموت وبتّ مصدر الحياة ؟

* * *

نحن علماء النصوص وأساتذة التخصص ، نرفض هذا العبث بحرمة كتاب لا يحل لنا أن نفهمه إلا كما بيّنه الرسول عليه الصلاة والسلام .

فهل يقبل علماء الكونيات والطبيعيات هذه الرِّدة العقلية التى تهيم فى كل واد ؟

وهل يقبل علماء العصر ، أن يلغوا قانون السببية ، ويقولوا لأبناء هذا الزمان [لا تخافوا من الميكروب والسم ، فالميكروب لا يضر والسم لايؤذى] ؟

ذلك ما لا أتصوره . . .

ولا يتصوره معى أبناء أسرتى المتخصصون فى الطب والهندسة والقانون والموسيقا والرياضيات والعلوم السياسية !

* * *

ثم ماذا عن الغيبيات ؟

المتدينون منا ، يؤمنون بها كما جاءت فى الكتاب الذى آمنوا به .

وفى دراستنا المنهجية ، نلفت الطلاب إلى أن العلم يرفض كذلك أن نخوض فيما لا علم لنا به .

ويأتى تفسير عصرى ، يخايلنا نحن أبناء عصر الفضاء والقمر ، بعجائب وغرائب من علمه بالغيب ، وكشفه الحجب عما استأثر الله بعلمه ، وليس لدى العلم التجريبى مجال لأى قول فيه .

ومن دار الإفتاء العصرية ، صدرت بتاريخ ٧٠/٤/٩ ، فتوى المفسر العصرى بأن [كرسى الله هو قلب المؤمن ، والعقل هو العرش ، والجسد هو اللوح المحفوظ الذى يكتب الله عليه ، على الجينات الوراثية فى خلية الجنين ، يكتب قدر المولود وحياته] !

والدكتور العصرى المفسر يقول لأبناء هذا الزمان: إن [فى

هذه البشرية من رأى الجن والملائكة والشياطين وعلم الغيب شهوداً] ص ١٢٢ .

وإن النذير للضالين بعذاب جهنم : [مثل تخويفك لابنك حينما تحذره من إهمال نظافة أسنانه وتقول له : إذا لم تنظف أسنانك بالفرشاة فإن الفيران سوف تأكل أسنانك . . وبالطبع لن تأكل الفئران أسنانه] ص ٦٨ .

وإن جنة الآخرة [هى درجة ومقام ، فيها كل ما نعرف على الأرض ولكن مع تفاوت هائل فى الرتبة ، مثل التفاوت بين الزمن والأبد ، ومثل التفاوت الذى ذكرناه بين طعم قطعة سكر ، وطعم اللذة الجنسية الحادة بالنسبة لبالغ] ص٦٣ .

وإن ناموس القيامة باختصار [هو تجلى الله بذاته]ص ١٥١ ، [وكل ما جاء عن الجنة والجحيم ما هو إلا ألوان من ضرب المثال ، والتقريب والرمز] ص ٦٦ .

وإن ملائكة العرش الثمانية فى آية الحاقة :

« وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ »

[لعلها قوى كهرمغنطيسية هائلة ، ألا تمسك قوانين الجاذبية بالشمس والنجوم فى فضاء الكون ؟] ص ١٢٩ .

وإن العلامة الأخيرة من علامات الساعة هى يأجوج ومأجوج . يرجم المفسر العصرى فيها بالغيب ، فيربط

حواراً بين الماريشال مونتجومرى وماوتسى تونج ، عن تكاثر الصين واحتمال غزوها للعالم، برؤيا يوحنا اللاهوتى . ثم يعقب تخميننا :

[ما هذه الأمة التى عددها كرمل البحر ، والتى سوف تحتشد لتحارب العالم عندما تتم السنة الألف ؟ ولعله يقصد الألف الثانية ميلادية ، وباقٍ عليها الآن أقل من ثلاثين سنة !] ص ١٤٥ .

فيا من قرأتم آية يأجوج ومأجوج ، أو سمعتموها تتلى عليكم من سورة الكهف ، هل فهمتم من قريب أو بعيد احتمال كونها من أشراط الساعة، مع صريح نصها أنها من خبر قوم غابرين، فى قصة ذى القرنين ؟

ويا علماء الرياضيات والطبيعيات ، هل يعنى رقم ثمانية عندكم ، قوى كهرمغنطيسية ؟

وهل تُعلمون طلاب التشريح فى عصرنا ، أن قلب المؤمن كرسى الله ، وعقل الإنسان عرش خالقه ، وجسمه اللوح المحفوظ الذى يكتب على الجينات الوراثية فى خلية الجنين ، قدر المولود وحياته، ليقتنعوا بأن القرآن صالح لهذا الزمان ؟

أما نحن أساتذة العربية والإسلام ، فلا نجرؤ على أن نلقى الطلاب أبناء هذا الزمان ، بمثل ذلك التفسير العصرى

لغيبيات يفرض علينا إيماننا بالدين والعلم ألا نخوض فيها بغير علم، حتى لا يكون مثلنا « كَمَثَلِ ٱلْعَنْكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتاً، وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعنْكَبُوتِ » .

وهيهات أن نسخر بعقولهم فندعى العصرية والعلمية فيهم، بكلمات ساذجة نلوكها عن كروية الأرض الدوارة ، والكهرمغنطيسية ومسيرة التطور والجينات الوراثية فى اللوح المحفوظ ، وقانون الضغط الأزموزى، وچيولوچيا القمر فى العرجون القديم ، والحقيقة البيولوچية العلمية فى التأنيث اللغوى للعنكبوت !

* * *



بين الدراسة القرآنية
والتفسير العصرى

- في المنهج
- في الموضوع



لن يفرغ للناس عجب إذا كشفت لهم عن وجوه التدليس فى التفسير العصرى للقرآن ، وبينت لهم ما فيه من ضلال الاقتباس بجهالة ، وعثرات النقل الغافل عن سياق النصوص المقتبسة وقيودها ودلالاتها .

فى سنة ١٩٦٩ — نشرت «دار المعارف بالقاهرة » كتاباً لى عنوانه :

(مقال فى الإنسان : دراسة قرآنية)

بعدها ، فى سنة ١٩٧٠ ، ظهر التفسير العصرى مقالات فى صباح الخير ، ثم فصولا فى كتاب مطبوع .

ولفتنى ، من أول وهلة ، ما بين الكتابين من صلة ، على التفاوت البعيد بين دراسة قرآنية تخضع لأدق الضوابط المنهجية الصارمة ، وبين تفسير عصرى يهيم فى كل واد ، ويضرب فى متاهة الغيبيات ، لا يضبطه أى قيد .

وأستأذن القراء فى أن أعرض هنا ما فى هذا التفسير على دراستى القرآنية ، استكمالا لوثائق هذه القضية الخطيرة ، وإضاءة لموقفهم مما ينشر فيهم باسم القرآن وفهمه العصرى .

* * *

وأبدأ بالمنهج :

فى تفسير الألفاظ ، أرى الدكتور يردد فى أول كتابه

(ص١٣) وفى آخره (٢١٣) كلاماً مما قررناه من تعذُّر تفسير كلمة قرآنية بأخرى من الألفاظ المقول بترادفها ، أو العدول بها على وجه التأويل والتقدير ، عن موضعها الذى جاءت به فى البيان المعجز .

وهذا الأصل المنهجى الذى نلتزمه فى الدراسات القرآنية ونلزم به طلابنا فى الجامعة ، يتردد فى التفسير العصرى فلا ندرى له موضعاً فيه ، وقد جرى المؤلف على أن يقحم على الآيات القرآنية تفسيراً لألفاظها فى نص الآية ، فيأتى بها على هذا النحو مثلا[1] :

« إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ (أنصارًا) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » ص ١٢٦ .

« وَمَنْ يَعْشُ (ومن ينصرف) عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (مصاحب وملازم) » ص ١٢٦ .

« قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذٰلِكُمْ إِصْرِى (عهدى) قَالُوا أَقْرَرْنَا » ص ٦٠ .

---

(١) هذه الآيات ، وكل ما فى التفسير العصرى من آيات ، جاءت فيه بغير ضبط ، ودون فواصل أو علامات ترقيم !

« فَلَوْلاَ (فلو أنهم) إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُون (يائسون تماماً) » ص ٧٩ .

« فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ (على سليمان) مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ (عصاه) فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (عذاب التسخير لسليمان) » ص ١٣٢ .

« قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً (أجرا) عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا . قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً . آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ (كتل الحديد الكبيرة) حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ (جانبي الجبل) قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ

آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (نحاس مذاب) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَما اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً » ص ١٤٣ .

« إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (أى انشقت) »

« وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (أى فجرت نارا) » ص ١٤٧ .

« وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا (لا تدفعكم الكراهية إلى تحامل) اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » ص ١٧٦ .

« وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ والْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ (ولا يشق عليه حِفْظُهُمَا) » ص ١٩٣ .

وذلك الخلط بين كلام الله وكلام البشر لم يجرؤ عليه أحد فيما أعلم . ولا عهد لنا بمثله فى أى كتاب إسلامى . وقد كان علماؤنا يتشددون فى إنكار مثله فى رواية الحديث ، حفظاً لمتنه من أن يختلط بكلام للراوى ، ولم يخطر لهم على بال ، أن ذلك مما يمكن أن يقع فى آيات القرآن .

* * *

وفى التأويل :

أرى الدكتور يردد بين حين وآخر ، كلمات متناثرة من ضوابط منهجنا الملتزم بصريح النص وحكم السياق ، فتبدو غريبة على أسلوبه العصرى وطريقة تناوله .

من ذلك مثلا ، أنه يردد ما لفتنا إليه من خطر التفسير الباطنى والعدول عن ظاهر النص ، وما أوجبنا من ضرورة الالتزام بدلالات الألفاظ القرآنية كما يعطيها الاستقراء الكامل لكل مواضع ورود اللفظ فى المصحف ، والاحتكام إلى توجيه صريح السياق .

فيقول مثلا فى إنكار تأويل البهائية :[. . . وهو أمر يكشف خطورة التفسير الباطنى للقرآن ، وخطورة إغفال ظاهر الحروف ومقتضى الكلمات والعبارات ، وكيف يمكن أن تؤدى أمثال هذه التفاسير إلى اقتلاع الدين من أساسه. . . وهذا ينتهى بنا إلى موقف فى التفسير لابد من التزامه ، هو الارتباط بحرفية العبارة ومدلول الكلمات الظاهر] . ص١٢٢ .

على حين يوغل بنا فى التأويل ، إلى أبعد مما ذهبت إليه البهائية والباطنية . لقد أنكر على صاحب البهائية مثلا أن يؤول غنم موسى بشعبه؛ فى الآية : « هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِى » .

فهل يكون تأويل الغنم بالشعب ، أبعد شططاً من تأويله للنعلين [بالنفس والجسد] فى آية طه ، خطاباً لموسى :

« فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِى الْمُقَدَّسِ طُوًى » ؟

ويفسر بشرية المصطفى ، فى آية الفرقان :

« وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ » .

بما نسبه إلى الصوفية ، من تأويل هذا المظهر لبشرية المصطفى [بأنه السرّ الإلهى ستر به سر النبوة فى ثوب بشرى عادى لرجل يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، حتى لا يبتذل السر بالإظهار والاشتهار !] ص ١٠٢ .

ويفسر آية الزمر ، خطاباً للمصطفى عليه الصلاة والسلام :

« إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » .

بما نصه : [أفق إلى نفسك فأنت غير موجود ! أنت ظل ، شأنك شأن الظل . موجود على الأرض ما دامت الشمس فى كبد السماء، فإذا غربت لم يعد لك وجود . واختفت معك كل الظلال التى كانت تتطاول بأعناقها إلى جوارك] ص ١٨٤ .

ويقول فى تفسير « كلمة التقوى » من آية الفتح .

[وهى كلمة النذير بأن كل شىء إلى فناء ، وبأن

كل هذا العالم ديكور من ورق اللعب ومدينة مزيفة مصيرها أن تفك وتعاد إلى علبتها . . .] ص ١٨٦ .

ويفسر [شفرة] فواتح السور بقوله :

[وهى علوم عليا سوف نصل إليها فيما بعد] ص ١٩٥ .

ويفسر آية العنكبوت :

« وَالَّذِين جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا »

فيقول فيما يقول :

[ولهذا السبب نفسه ، لعدم القهر والجبر أخفى الله نفسه فى الإنجيل ، وأخفى نفسه فى القرآن (؟ !) لأنه لم يرد أن يلجمنا بالتجلى القاطع الفاصل فيقهرنا على الإيمان قهراً] ص ٣٧ .

* * *

على أن ذلك كله ، ومثله معه ، لايقاس بما جاءنا به التفسير العصرى من عجيب التأويل لغيبيات عن حياة لنا سابقة قبل النزول فى الأرحام ، وعن شهود الجن والشياطين والملائكة ، وعن غيب الساعة والحياة الآخرة . . .

وهى تأويلات نعرضها على ما يقابلها من دراستى القرآنية ، ونحتكم فيها إلى الكتاب المحكم ، لنرى مبلغ التزام المفسر العصرى بما ردده من قاعدتنا المنهجية فى [الوقوف عند حرفية العبارة ومدلول الكلمات الظاهر] .

فى الموضوع :

موضوع كتابى (مقال فى الإنسان) كما لخصته على غلافه ، فى طبعة المعارف سنة ١٩٦٩ :

« دراسة قرآنية لقصة الإنسان من المبتدأ إلى المنتهى ، تستقرئ آيات البيان القرآنى فى الحياة والموت ، وتستجلى فيه ملامح الإنسان بكل كبريائه وعظمته وقوته ، وكل غروره وهوانه وضعفه . وتتدبر ما يحمله فى رحلته العابرة بالدنيا من مسئولية أمانته الصعبة ، وما يواجه من مشكلات الوجود وهموم المصير » .

وكنت بحيث لا أشق على القراء بعرض مقابلة موضوعية بين عطاء هذه الدراسة القرآنية المنهجية ، وما يقابلها فى التفسير العصرى ، اكتفاء بأن أشير إلى مواضع المقابلة .

غير أن ما يأتى فى كتابى مباحثَ مستقلة متميزة ، يتناثر فى فصول الكتاب العصرى :

فما كتبته عن الحوية والرق مثلا ، جاء به الدكتور فى فصل (لا كهنوت) .

والذى قدمته فى « حرية العقيدة » جاء به موزعاً على ثلاثة فصول : (لا كهنوت ، رب واحد ، لا إله إلا الله).

وما قلته فى مبحث « جدل فى البعث » جاء بعضه فى فصل (البعث) وبعضه فى (إعجاز القرآن) . . .

وإذ لا سبيل لسواى مع هذا التشتت ، إلى أن يهتدى إلى مواضع الأخذ والمقابلة ، أجدنى مضطرة إلى أن أستخلصها بنفسى ، بقدر ما يحتمله ضيق المجال المحدود .



(١)
الغيب

« قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعاً وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْب لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .
(قرآن كريم)

[وفى هذه البشرية من رأى الجن والملائكة والشياطين وعلم الغيب شهوداً] (التفسير العصرى : ١٢٢)

* * *

حظر القرآن الخوض فى الغيبيات بغير علم .

وحين أباح الأئمة من علماء السلف الاجتهادَ فى التفسير لأهل الفقه والدراية ، أخرجوا الغيبيات من مجال الإباحة ، ونصوا على منع الاجتهاد فى تأويلها ، وإنما حسبنا أن نتوقف فيها على ماجاءنا به الدين الذى نؤمن به.

وكذلك لايجيز العلم أن نخوض فى الغيبيات بغير علم ، فكل ما يقال فيها لايعدو أن يكون حدساً افتراضياً أو رجماً بالظن .

ومن (مقال فى الإنسان) :

«فتجافى العلم عن هذه الغيبيات ، التزام بمنهجه التجريبى الدقيق الذى يرفض أن يقول فى الغيبيات بنفى أو إثبات ؛ والعلم الحديث يدرك حق الإدراك أن وراء الظواهر الكونية أسراراً خفية ، لكنه يتجه ببحوثه إلى دراسة الظواهر وكشف الخصائص تاركاً أسرار الميتافيزيقا حتى يهتدى إليها فتخرج من نطاق الغيبيات ... ويسقط عنها الحرج الدينى والحرج العلمى ، كلاهما » ص ١٦٠ .

وتقرأ مثل هذا الكلام ، فى التفسير العصرى ، عما فى القرآن من [طلاسم من الغيب المحجب يحار فيها عقلنا ولا يملك لها نفياً ولا تأييداً] ص ١٢٥ .

[والاجتهاد مباح فى أمور الدنيا ، لكن القطع فى أمر غيبى أكبر خطأ يتورط فيه قارئ القرآن ، فضلا عن أنه ليس فى مقدورنا] ص ١٤٥ .

[فالروح غيب ، وما بعد الموت غيب ، ولا نملك فيه إلا ذلك الخبر الذى أتانا به نبينا الكريم من لدن عالم الغيب الذى يرى مالا نرى ويعلم ما لا نعلم] ص ١٦٩ .

ونراه مع ذلك التكرار لحظر الخوض فى الغيبيات ،

والاقتصار فيها على ما أتانا به القرآن ، يقتحم الغيب ويأتى بعجائب وغرائب من بدع التأويلات ، توغل بنا من حياة كانت لنا قبل النزول فى الأرحام ، وتؤكد أن فى هذه البشرية مَن كُشف له علم الغيب ، وتقرر أن المفسر العصرى [يكاد يضع يده على الحقيقة] من غيب الساعة والآخرة .

* * *

وأبدأ بقصة الخلق ، وخلاصة ما أعطته دراستى القرآنية :

« تبدأ قصة الإنسان بخلق آدم ، أبى البشرية .

« ولا مجال هنا للجدل حول نظرية التطور وخلق آدم ، فآدم فى النص القرآنى هو الإنسان الأول الذى بدأ منه طور البشرية والقرآن الكريم يشير إلى أنه تعالى قد « خلقكم أطواراً » ويلفت إلى مرحلة زمنية ، لم يكن الإنسان فيها شيئاً مذكوراً :

" هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُورًا " .

« كما لا مجال للتعرض لما خاض فيه المفسرون من تفصيلات لكيفية خلق آدم من تراب أو طين : فحسب الإنسان منا ، لكى يؤمن بالقدرة الخالقة ، أن يلتفت إلى الأرض : تدفن

جثث موتانا فى ترابها ، فتتحلل عناصرها ذائبة فى التراب الذى يتغذى الأحياء من نباته ومعادنه وباقى عناصره . . .
ولا يحتاج الإنسان إلى أكثر من هذا الالتفات ، ليدرك أننا خلقنا من تراب ، وإلى التراب نعود ، على المشهود المنظور والواقع الحسى المدرَك :

" الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ، كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِى النُّهَى * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى "[1] . سورة طه : ٥٣ — ٥٥

وفى التفسير العصرى :

[فإذا قال الله : خلقناكم ثم صورناكم . . . ثم اكتملت الصورة بتخليق آدم فقلنا للملائكة اسجدوا لآدم . . . فمعنى هذا أن آدم جاء عبر مراحل من التخليق والتصوير والتسوية استغرقت ملايين السنين بزماننا ، وأياماً بزمن الله الأبدى .
«وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوارًا» ، ومعناها أنه كانت هناك قبل آدم

---

(١) مقال فى الإنسان : ص ٢٥ ط المعارف ١٩٦٩ .

صور وصنوف من الخلائق جاء هو ذروة لها : « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً » إشارة إلى مرحلة بائدة من الدهر لم يكن الإنسان يساوى فيها شيئاً يذكر] ص ٥٢ .

لكن هذه الخلاصة ، التى لا تبعد كثيراً عما قلتُ آنفاً ، تتوه فى حشد من التأويلات لغيب مجهول ، كنا نعيش فيه قبل الآدمية ، وتفصل الحديث عن خروج آدم من طين المستنقعات ، ردة وانتكاساً وعقاباً على خطيئة !

وقصة الخلق عنده ، تبدأ بصفحات عن نظرية « داروين » فى أصل الأنواع ختمها الدكتور باكتشاف [الخطأ الذى وقع فيه داروين فى نظريته عن النشوء والارتقاء ، . . . . . لمجرد أنه ، لايرى يد الصانع الخالق المهندس وهى تهندس وتخلق] ص ٤٧ .

ثم قدم لنا ، تأويله العلمى لقصة الخلق التى غابت عن داروين ، وكل العلماء ، كما وغابت عن عصر النبوة ، قال :

[إن القرآن يزودنا بما هو أكثر من كل ما قاله العلم . فيطلعنا على بعض الغيب . على ما حدث فى الملكوت فى الملأ الأعلى قبل الخلق الأرضى لآدم ، فيروى لنا مرحلة سابقة لهذا الخلق : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ

تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ » .

[إن ما حدث من انبثاق آدم من الماء والطين على مراحل تطورية فى الأرض، كان ردة وكان انتكاساً وعقاباً لخطيئة سوف نفهم تفاصيلها] ص ٥٥ .

[لقد منح الله آدم الحرية، وخيره بين الدخول فى طاعته فيكون شأنه شأن النجوم فى أفلاكها تجرى على نواميس الله الموضوعة ، وبين أن يكون حرًّا مسئولا فيحمل الأمانة . . . ولكن الإنسان اختار أن يكون حرًّا مسئولا وأن يخرج على الأمر الإلهى بإغراء إبليس ، فيأكل من الشجرة[١] .

[وكان العقاب هو الطرد والإهباط من تلك الجنة إلى الأرض . والنزول إلى « أسفل سافلين » ،وهى هاوية التيه المادى، إلى طين المستنقعات. هذه المرة إلى مجرد جرثومة فى طين الأرض، إلى نقطة بدء أولى ، من الصفر.

[وكان على آدم أن يخرج من هذا التيه المادى فى انبثاق متدرج عبر خمسة آلاف مليون سنة كما تقول لنا علوم البيولوجيا ، وعبر مراحل وأطوار بدأت بالخلية الأولى والأميبا ، صعدا إلى الإسفنج والرخويات والقشريات . . . إلخ إلخ ،

---

(١) قابله على مبحث (أمانة الإنسان) فى كتاب مقال فى الإنسان ، لترى ألا صلة لهذه الأمانة بالشجرة المحرمة .

فى رحلة قاسية وعبر صراعات دامية. . .

[إنها رحلة أشبه بالخروج من الرحم ، من رحم الأرض ذاتها وهى الرحلة التى يعطينا الجنين تلخيصاً سريعاً لها فى تسعة أشهر. «فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ» .

[وأثاب الله آدم على توبته بأن هداه فى رحلته الدامية وأخذ بيده خارجاً من رحم الأرض ومن طين المستنقعات حتى وقف منتصباً على قدميه محاكياً آدم الأول] ص ٥٩ .

هذا هو التصحيح العصرى لنظرية دارون، يردنا باسم القرآن إلى الأميبا والرخويات والقشريات ... تفسيراً لأسفل سافلين ، ثم يقرر بعدها فى تأويل آية الانشقاق : «يَاأَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ »:

[هناك إذن مرحلتان من خلق آدم ، آدم المثال الذى خلقه الله فى أحسن تقويم ليكون إلى جواره فى الملكوت ، وآدم الأرضى الذى انبثق من ظلام المادة ومن رحم الأرض ومن أسفل سافلين ، حيث ألقى به مبعداً مطروحاً . . . . إن كلا منا نحن ذرية آدم قد عاش هاتين المرحلتين] ص ٥٩

[وهى آيات كواشف ، تشير إلى مرحلة روحية عشناها فى الملكوت قبل النزول فى الأرحام ، وإلى أنه كان لنا ثمة وجود

قبل الميلاد (!) شأننا فى ذلك شأن آدم الذى بدأ حياته فى أحسن تقويم ثم أنزل، إلى أسفل سافلين] — ص ٦٠ .

[ويقول الله فى القرآن لمحمد : « قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » ، وهى كلمات تعنى سبق الوجود المحمدى على جميع الأنبياء . وهى إشارات تدل على وجود روحى سابق . . . كنا فيه فى عالم ملكوتى قبل أن ننزل إلى الأرحام] ص ٦١ .

* * *

وأعترف مع الدكتور، بأن هذا كله [مما لم يقله لنا أى علم] فهل هو مما قاله القرآن ؟

وهل من [الالتزام بحرفية العبارة ومدلول الكلمات الظاهرة] أن آدم خرج من الجنة ، مجرد جرثومة فى الطين ، تطورت عبر خمسة آلاف مليون سنة ؟

إنه على أى حال ، ليس بأعجب من التأويل البيولوجى للشجرة المحرمة ، كما جاءت فى قصة الخلق من الفهم العصرى للقرآن :

[فإذا عدنا إلى الشجرة لنسأل ما هى ؟ أهى رمز أم حقيقة ؟ وجدنا أمامنا اختلافاً كبيراً . . . وأنا أرى أنها رمز للجنس والموت اللذين تلازما فى قصة البيولوجيا حينما أخذت الكائنات

الحية بطريقة التلاقح الجنسي لتتكاثر فكتبت على نفسها طارئ الموت .

[كان التلاقح الجنسي هو الشجرة المحرمة التي أكلت منها الحياة فهوت من الخلود إلى العدم ؛ وبالمثل كان زواج آدم وحواء هو زواج اثنين من الخالدين في الجنة . وفي مثل هذا الزواج لم تكن توجد وظيفة للنكاح والتلاقح الجنسي . فالخلود حقيقة قائمة ولا حاجة للنسل لاستمرار الحياة . . .

[ويقال إن شريعة الطهارة وقطع الغلفة الزائدة من العضو التناسلي . كانت الكفارة التي قضى بها آدم على نفسه بعد الخطيئة كمحاولة للخصاء ، تقززاً مما فعل ، ثم أصبحت تقليداً دينيًّا من يومها . ولا مانع من أن تكون الشجرة هي شجرة تؤكل بالفعل فتؤدي إلى إطلاق الهرمونات واشتعال الرغبة الجنسية ، ومن ثم تلقي بآدم إلى المخالطة الجنسية ، وتكون الآية صادقة حرفيًّا ومجازيًّا] ص ٦٣

الغريب حقًّا ، أن الدكتور ختم هذه التأويلات القطعية لقصة الخلق وبيولوجيا الشجرة بقوله :

[ولا يمكننا القطع في هذه المسائل ، ويجب أن نقول إن الشجرة ما زالت لغزاً ، وإن قصة الخلق ما زالت من أمور الغيب لا نستطيع أن نقول فيها أكثر من الاجتهاد] ص ٦٣ .

وفى تأويل الجن والشياطين والملائكة :

لاموضع لمقارنة بين عطاء دراستى القرآنية ، وبين جديد التأويل العصرى. فهما مختلفان تماماً. على أن المقارنة تجدى على بيان جوهر الفرق بين عقليتنا ومنطقنا نحن تلاميذ مدرسة النبوة ، وبين عقلية طبيب صحافى ومنطقه العصرى فى فهم القرآن وتأويله .

فى (مقال فى الإنسان) ، لم أزد على قولى فى الجن :

« لفظ الإنس يأتى دائماً مع الجن على وجه التقابل : يطرد ذلك ولا يتخلف فى كل الآيات التى ورد فيها ذكر الإنس ، وعددها ثمانى عشرة آية .

وملحظ الإنسية هنا ، بما تعنى من عدم التوحش ، هو المفهوم صراحة من مقابلتها بالجن ، فى دلالتها أصلا على الخفاء الذى هو قرين التوحش .

« وبهذه الإنسية يتميز جنسنا عن أجناس أخرى خفية مجهولة لاتنتمى إلينا ولا تحيا حياتنا . وليس من الضرورى أن يقتصر مفهوم الجن على ما ألفنا من إطلاقه على تلك الأشباح التى لا تظهر لنا إلا فى تهاويل الظلمة وتصورات الوهم . وإنما يتسع اللفظ — بدلالته الأصلية على الخفاء ، ومقابلته للإنس — لأى جنس غير بشرى يعيش فى عوالم غير منظورة ولا مدركة وراء حدود عالمنا الذى نعيش فيه ، ولا يخضع للسنن المعروفة

التى توجه حياتنا وتحكمها .

«وبهذا المدلول الرحب ، تنتفى شبهة الخرافة التى تدفع كثيراً منا إلى رفض الاعتقاد فى وجود الجن ، إذا قدرنا أن الكشوف العلمية الحديثة لاتنفى احتمال وجود جنس غيرنا ، يعيش فى عوالم خفية كالكواكب ، لانزال نجهلها وإن لم نكف عن السعى إلى اكتشاف خفاياها ومجاهلها » ص ١٤ .

* * *

أما الملائكة ، فقصارى ما قدمته فى مبحث : خليفة فى الأرض، من (مقال فى الإنسان) :

«فى مستهل العهد المدنى نزلت سورة البقرة ، وفيها آية خلافة آدم فى الأرض :

" وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ "

« والآية، ومعها آيات خلق آدم ، صريحة الدلالة على أنه مسبوق بأنواع أخرى غير بشرية ، منها هذه الملائكة التى لا ندرى كنهها ولا يأذن لنا العلم فى أن نخوض فيها ، وهى من

الميتافيزيقية التى لاتزال خارجة عن اختصاص العلم الحديث .

« وكذلك لايأذن لنا الدين أن نقول- فيها بأكثر مما تلاه علينا كتاب ديننا . ومنه نعرف أن الملائكة طور سابق على آدم ، وقد عاشت فى عالمها الذى لا يحيط به إدراكنا ، خاضعة لنواميس غير التى تخضع لها الآدمية ، تسيرها الإرادة العليا على وجه التسخير ، فتأتمر بها فى خضوع وإذعان ، دون أن تبتلى بحرية إرادة واختيار ، ودون أن تهيئها طبيعتها لعلم أو خلق كسبى ، بل دون أن تدرك ضرورة ما لوجود طور جديد من المخلوقات ليس له مثل خضوعها ، وهى المذعنة للتسخير المطلق ، والكون يسير قبل هذا الآدمى ، والملائكة فيه رسل ربهم :

" لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ "

« والآدمية ليست ملائكية ولا إبليسية :

ليست جبرية تسليم وطاعة تسخير ، ولا هى محض شر وشهوة تمرد وإصرار على الغى والضلال ، وإنما هى تحقيق للذات عن وعى وتمييز وإرادة .

« هى تجربة الابتلاء يتعرض فيها آدم للغواية فيغوى ، ثم تصهره التجربة وتحاسبه النفس اللوامة فيندم ويتوب . ويمضى آدم ليمارس خلافته فى الأرض ، فلا تكون حياته كلها ، من بدء خلقه إلى آخر وجوده الدنيوى ، إلا معركة متصلة

بين الخير والشر ، يحتمل فيها تبعة عمله ومسئولية اختياره وأمانة إنسانيته .

« وعصمة الملائكة عن إجبار ، دون خيرية البشر عن اختيار .

كل خير من الإنسان، كسبي لا تحظى به الملائكة المسخرة . وأى شر تنسخه التوبة الصادقة وتردعه النفس اللوامة .

أو هذه هى الآدمية السوية . وحين يشذ عنها بعض أفرادها فيقترف الشر شهوة وهواية ، دون رادع من ضمير ، فإن هذا الشذوذ يخرج بمثل هذا الشرير عن طبيعة الآدمية ويمسخه شيطاناً مريداً من حزب إبليس اللعين . من هنا لم يكن فيما توقعت الملائكة لآدم من إفساد فى الأرض وسفك الدماء ، ما يبرر حرمانه من الخلافة فيها ، دون الملائكة التى تسبح بحمد الله وتقدس له . فالابتلاء يقتضى أن يكون أمام آدم شرور تغويه ، لكى تمتحن طاقته وتصهر معدنه . وأمانة الإنسان تعنى أن يواجه التجربة ويخوض المعركة بين الخير والشر ، ليكون خيره له وشره عليه ، وهو ما خلق ليعيش فى ملكوت الملائكة وإنما خلق ليعيش حياته على هذه الأرض ، والخير المحض لا يبرر الخلافة ، إذا كان جبريًّا بغير إرادة واختيار » ص ٢٦ .

* * *

وقد تجد منه فى التأويل العصرى ملتقطات مبعثرة بين (مخير أو مسير) و (قصة الخلق) عن تسخير الملائكة وتمرد إبليس وأمانة الإنسان وتبعات التكليف ومهالك الغرور ، وابتلاء الإنسانية بالخير والشر . . .

ولكنك تجد معه الجديد المبتدع من مثل هذه التأويلات الغيبية التى لم تصل إليها عقليتنا :

فى تفسير آيتى الزخرف :

« وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » .

« يَا لَيْتَ بَيْنِي وبَيْنَكَ بُعْدَ الْمشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ »

يأخذ منها المفسر العصرى ، مما غاب عن عصر النبوة ، شاهداً على أن الأرض كروية تدور ، ثم يستطرد قائلا :

[وهذا المثال يدلك على مدى الخفاء فى القرآن ، وأن فهمه يحتاج إلى كل الجهد . . . وأن مثل هذه الآيات ما كان يمكن أن تفسر فى عصرها وزمانها ، وهذه إشارة بأن حكاية القرين من الجن ، هى أيضاً أمر غيبى لن يفهم الآن ، ولكن سوف يتضح فى ميقاته وزمانه ،ولكن علينا أن نؤمن إذا كان لنا قلب وإحساس وفطرة وروح تذكر ما كان لها فى عالم الملكوت .

[والحقيقة أن الإيمان بالجن والملائكة قلباً ، هو دليل كاشف على نوع من التذكر الا امض لعالم القدس والملكوت ، وأنه إيمان دال على شيء وليس مجرد تسليم خاو . ثم يروى لنا الله فى القرآن أن الإنسان لا يُترك لقرين الشر من الجن ، وإنما له قرين آخر من الملائكة يلازمه ويلهمه بالخير ، ويظهر هذا القرين الملائكى ليشهد يوم القيامة ويخبر عن صاحبه :

وقَالَ قَرِينُهُ هٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ »

* * *

فليتدبر القارئ سياق الآية التى استشهد بها الدكتور المفسر ، للقرين الملائكى :

«لَقَدْ كُنْتَ فِى غَفْلَةٍ مِنْ هٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ * وَقَالَ قَرِينُهُ هٰذَا مَا لَدَىَّ عتِيدٌ * أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ * الَّذِى جَعَل مَع اللهِ إِلٰهاً آخَر فَأَلْقِيَاهُ فِى الْعَذَابِ الشَّدِيدِ * قَال قَرِينُهُ ربَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلٰكِنْ كَانَ فِى ضَلاَلٍ بَعِيدٍ »

هل فى هذا السياق : شهادة من قرين ملائكى لصاحبه الذى لازمه وألهمه الخير ؟

* * *

ويتابع الدكتور اجتهاده فى تأويل الغيب : [ثم هناك ملائكة للعرش « وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ »

[كيف تحمل ثمانية من الملائكة عرش الله ؟ أم هى ثمانية صفوف كل صف فيه ما لا نهاية من الملائكة ؟ أم هى ثمانية قوانين فيزيقية وميتافيزيقية ؟ ثم ما هو العرش ؟ أم هو رمز ؟ وما هو الكرسى ؟ إنه يوصف فى آية الكرسى بأنه وسع السماوات والأرض . فما بال العرش بأسره ؟ وكيف تحمله مخلوقات ؟ أم هى مخلوقات غير ما نعرف على الإطلاق ولعلها قوى كهرمغنطيسية هائلة ؟ ألا تمسك قوانين الجاذبية بالشمس والنجوم فى فضاء الكون ؟] ص ١٢٨ .

على أن الدكتور ما لبث أن كُشف له الحجاب عن ذلك الغيب كله ، فنشر فى فتاويه بالمجلة رداً على بريد القراء ، أن العرش الإلهى هو قلب المؤمن ، وأن الكرسى هو العقل ، أما اللوح المحفوظ فهو جسد الإنسان يكتب فيه الله أو ملائكته أقدارنا على الجينات الوراثية !

ويقدم معه تأويلاً لقوله تعالى :

«يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» :

[وهو كلام محير يفهم من ظاهره أن الله مثلنا يكتب ويشطب ويراجع النفس . . وهو غير صحيح ، والتفسير الأصح أن الآية دلالة على سعة المغفرة والرحمة بدرجة تصل إلى اللامعقول إلى محو القدر المقدور] ص ١٣٧ .

* * *

ونفهم من قوله فى إعجاز القرآن :

[وهو معجزة لأنه يخبرك عن ماض لم يؤرخ ، ويتنبأ بمستقبل لم يأت ولم تقم عليه الشواهد ، ويدلك على علوم لم تعلم بعد ، وعن غيب محجب مطلسم لم يكشف إلا لقلة من المخصوصين من أهل التصوف] ص ٢٠٦ .

نفهم منها أن الدكتور عدل عما قرره من استئثار الله تعالى بعلم الغيب فلا مجال للاجتهاد فيه . ولعله كذلك وضع نفسه مع هذه القلة من الصفوة التى كشف لها ما كشف من غيب مطلسم محجب ، إذ يقول فى الرد على تأويلات صاحب البهائية :

[وإذا كانت حجته فى هذه المزاعم هى أنه لم ير الملائكة ولا الجن ولا الشياطين ، فلماذا يلزم بها البشرية ، وفى هذه البشرية من رأى الجن والملائكة والشياطين وعلم الغيب شهوداً ؟ هل الأعمى هو الذى يلزم المبصر ؟ أم أن حجة المبصر الواحد

تقوم فتلزم ملايين العميان الذين لايرون الشمس إذا رآها مبصر واحد ؟

[إنها اختلاقات النبي الذى أراد أن يدخل منتدى الأنبياء بلا مؤهلات ، ويتسلل إلى مائدة الخالدين دون أن يمتحن فأنكر المعجزة والغيب حتى لا يطالبه أحد بأوراق اعتماده فى السفارة الإلهية التى ادعاها] ص ١٢٢ .

* * *

ولا أسأله هنا :

هل تكون رؤية الجن والملائكة والشياطين وعلم الغيب ، أوراق اعتماد فى السفارة الإلهية ، لمن رآها من هذه البشرية شهوداً ؟

بل أطيل التأمل فى قوله ، تأويلا لآيات النجم :

« إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى » والتكوير «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ » :

[وحيناً يصف الله أحد مخلوقاته بأنه شديد القوى وبأنه ذو القوة والمكانة ، فلابد أنه هائل عظيم فى قوته وفى إمكانياته .

[ونفهم من القرآن أن جبريل يمكن أن ينزل إلى الأرض

فى أية صورة ، ويحمل الوحى إلى أى نبى فى أى عصر وبأية لغة] ! ؟ ص ١٣٠ .

ثم لا أملك إلا أن أتلو الآية المحكمة :

« مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رجَالِكُمْ وَلٰكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَم النَّبِيِّينَ ، وَكَانَ اللهُ بكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً »

وأستغفر الله لى وله . . .

* * *

وماذا عن غيب الآخرة ؟

الساعة التى استأثر الله بعلمها وقال لرسوله المصطفى :

« يَسْأَلُونَكَ عَن السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهاها * إنما أنتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » النازعات : ٤٢–٤٦

« يَسْأَلُونَكَ عَن السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فى السَّمٰوَاتِ والأَرْض ، لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ».

الأعراف : ١٨٧

« يَسْأَلُكَ النَّاسُ عنِ السَّاعَةِ قُل إنَّما عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ ومَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً » . الأحزاب : ٦٣

هذه الساعة التى لا يعلمها إلا الله ، والتى أكد القرآن أنها تأتى بغتة ، أدخلها المفسر العصرى فى مجال اجتهاده ، فجاءنا من غيب أنبائها ، بفصل كامل من كتابه .

وعلى عادته يبدأ بتقرير الأصل فيقول : [الساعة ذروة الغيب ، وعلمها محجوب عن الكل . اختص الله به نفسه دون العالمين] .

ثم لا يلبث أن يمضى على غلوائه ، فيضع رؤيا يوحنا اللاهوتى أمامه ، ثم يتجاوز أقصى المدى فى الاجتهاد ، فيحدد موعداً محتملا لقيام الساعة ، بيننا وبينه ثلاثون عاماً !

قال : [ثم تأتى العلامة الأخيرة وهى يأجوج ومأجوج . وهى قصة غامضة كلها رموز .

[البعض (؟) يقول إن يأجوج ومأجوج هم نسل يافث ابن نوح ، وإنهم هم الجنس الأصفر ، الصين وما فى دربها ، عاشوا فى آجال وأحقاب من الجهالة ، والشعوب المتقدمة من حولهم تبنى أسواراً من العلم والتصنيع .

[وذو القرنين وصهر الحديد والنحاس ، كلها رموز للعلم والصناعة التى كانت دائماً تحجزهم وراء حاجز الجهل

والتخلف وتقيم حولهم سداً . حتى إذا جاء اليوم الموعود ونفضوا عن أنفسهم هذا التخلف وأخذوا بأسباب الصناعة وصنعوا الحديد والصلب والقنبلة الهيدروچينية وتكاثروا إلى آلاف الملايين وهدموا السد (ولم يكن ذلك السد إلا رمز الجهل الذى يعزلهم عن العالم) ساحوا فى الأرض ونزلوا من كل حدب ينسلون وكانت الحرب التى تضع ختام الحياة] ص ١٤٤ .

[ومع هذا ، فإنا لو فتحنا الإصحاح العشرين من سفر الرؤيا وقرأنا ما يقوله يوحنا اللاهوتى عن يأجوج ومأجوج ؛ فإنا نراه يقول نفس المعانى ويشير نفس الإشارات : « متى تمت الألف سنة يحل الشيطان من سجنه ويخرج ليضل الأمم الذين فى أربع زوايا الأرض . . . يأجوج ومأجوج ليجمعهم للحرب وعددهم مثل رمل البحر »]

هنا ينتبه الدكتور إلى أن « الألف سنة » – وأقرب احتمال عنده أنه بعد ميلاد المسيح عليه السلام – قد مضى منذ تسعمائة سنة وسبعين ، فلا يجد مانعاً من الاجتهاد فى تأويله :

[ما هذه الأمة التى عددها كرمل البحر ، والتى سوف تحتشد لتحارب العالم عندما تتم السنة الألف ؟ ولعله يقصد الألف الثانيةميلادية ، وباق عليها الآن أقل من ثلاثين سنة .

[هى أمور تثير الخيال ، وهى نبوءات تتداعى الواحدة لتؤيد الأخرى ، ولا نملك إلا الصمت ، فمثل هذه التأويلات

لا يحق لنا أن نؤولها والوحى يقول لنا عن القرآن : «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ» .

مرة أخرى يخونه سياق الآية ، فى المتشابه من آيات القرآن ، لا فى القرآن كله .

ومرة أخرى يردد القاعدة الأصولية فى حظر الخوض فى الغيبيات ، ومنع الاجتهاد فى تأويلها .

بعد كل ما أوغل فيه من تأويل لغيب الساعة ، ورؤية الجن والشياطين والملائكة شهوداً .

ثم يستطرد فيضيف علامة لقيام الساعة ، بعد الأخيرة التى حددها بيأجوج ومأجوج – فينقل إلينا من سفر الرؤيا تفسيراً لآيات الانفطار والتكوير ، صورة مشابهة للقيامة ،

فى رؤيا يوحنا اللاهوتى – ص ١٤٧

وكانت نهاية المطاف عنده ، فيما كشف له من غيب الآخرة :

[حتى الحساب هنا يبدو أنه حساب النفس للنفس . تعالى ذو الجلال أن يحاسب أمثالنا وأن يعذب أمثالنا!! . . .

[ولكن هذه المعانى تضيع فى النظرة المتعجلة والقراءة السطحية والوقوف عند الحروف ، وعند جلجلة الألفاظ !

[أكاد أجزم بأن ألفاظ القرآن بما فيها من جلجلة وصلصلة

حينما تصف الجحيم إنما هى نذير حقيقى بعذاب نعذبه لأنفسنا بأنفسنا عدلا وصدقاً على رتبة استحقها كل منا بعمله .وأكاد أضع يدى على الحقيقة لاريب فيها] ص ٨٤ .

* * *

هكذا كاد يضع يده على الحقيقة فى غيب الآخرة . وذلك غير مستبعد ممن يرشدك إلى الوسيلة التى تكشف لك ما كشف له من علم الغيب ، فيقول :

[ووعد الإنجيل : « اطلبوا تجدوا . دقوا على الباب يفتح لكم » على أن يكون دق الباب بجماع القلب والهمة وانقطاع البال وخلوص النية . وليس مجرد شقشقة لسان بدعاء تقليدى . وحينئذ يتفضل عليك الله كما يتفضل على أحبابه وأوليائه فيفتح بصيرتك لترى الملائكة شهوداً وترى الغيب حضوراً ، وتسمع ما لا أذن سمعت] ص ١١٩ .

* * *



(٢)

حرية الإنسان

وأدع الغيبيات، من قصة الخلق ، ومن الجن والملائكة، وعلم الساعة والآخرة ، لأتابع المقارنة الموضوعية بين دراستى القرآنية والتأويل العصرى، فأشير بوجه خاص إلى مباحث حرية الإنسان ، التى هى قضية الإنسان الكبرى فى هذا العصر وكل عصر .

* * *

والمبحث الأول من مباحث هذه القضية فى كتابى ، خاص بالحرية والرق ، وخلاصة ما هدى استقراء كل آيات القرآن فيه ، هو : « أن كتاب الإسلام لم يكتف فى مواجهة مأساة الرق بتقرير المساواة بين الناس جميعاً وتحريم العبودية لغير الله وحده ، وهذا هو جوهر الدين كله .

وإنما عمد، من ناحية، إلى إغلاق المنفذ الجديد للاسترقاق؛ وإلى تصفية الرق القائم عصرَ المبعث من ناحية أخرى :

« فأما إغلاقه المنفذ للرق ، فالمعروف أن أسرى الحرب والقتال كانوا المورد الأول للرقيق . وتشهد آية محمد :

" فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا "

تشهد أن كتاب الإسلام لا يجيز استرقاق أسرى الحرب ، وإنما يخيّر المسلمين المنتصرين بين أمرين لا ثالث لهما : المن على الأسرى بإطلاقهم ، أو قبول الفدية فيهم . وإذ لم يقل الثالثة : وإما أسراً واسترقاقاً ، فقد سد المنفذ الأكبر للرق وأعفى الإنسانية من مورد له جديد متصل .

« وفى تصفية الرق القائم ، بدأ القرآن فى العهد المكى المبكر فحضّ الإنسان على اقتحام العقبة لتحقيق وجوده الإنسانى الحر ، وبيّن تعالى سبيل اقتحامها ، فكان "فَكُّ رَقَبَةٍ" أول ما بدأ به ، دون تقييد هذا الفك بكفارة من ذنب :

" فَلاَ اقْتَحَمَ العَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ . . . "

« ثم فى العهد المدنى الذى اتجهت فيه عناية القرآن إلى التشريع ، أخذ وضع الرق من هذه العناية ما يؤكد حرص الإسلام على تصفية الرق القائم . وقد بدأ العهد المدنى بسورة البقرة وفيها « آية البر » :

" لَيْس ٱلْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالْمَغْربِ ولٰكنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ والْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى والْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وابْنَ السَّبِيل وَفِى الرِّقَابِ " . (التوبة : ٦٠) .

ثم حدد القرآن مصارف الصدقات ، وهى من أكبر مصادر إيراد بيت المال ، فجعلها ثمانية من بينها تحرير الرقاب .

وفرض الإسلام على المؤمن تحرير رقبة ، كفارةً لعدد من الذنوب منصوص عليها فى القرآن :

الحلف فى الأيمان	:	المائدة ، ٨٩
القتل الخطأ	:	النساء ، ٩٢
الظهار	:	المجادلة ، ٣

كما شرع المكاتبة منفذاً آخر لتصفية الرق (النور ٣٣)

وإذا كان الاسترقاق قد بقى فى المجتمع الإسلامى على عهد الرسول والصحابة ، فلست أشك بما أعى من سيرة الرسول — صلى الله عليه وسلم — وخلفائه الراشدين ، أن الرق كان فى طريقه إلى التصفية لولا ما طرأ على الأمة الإسلامية ابتداء من العصر الأموى من ظروف وأوضاع ضيّعت على الإنسانية

ما أتاحه لها كتاب الإسلام لتخليصها من محنة الرق » .

(مقال فى الإنسان ، ٦٧ : ٧٣)

* * *

المبحث كله جملة وتفصيلا منقول إلى التفسير العصرى، وإن عدل به عن موضعه من قضية الحرية إلى فصل (لا كهنوت) !

وقد حاول أن يستغنى – فيما نقل من كتابى – عن بعض ألفاظ ،وأن يعيد صياغة بعض الجمل بأسلوبه العصرى، فخانه الالتفات إلى دلالة السياق وأفسد المعنى . كمثل قوله :

[والحل الأمثل هو الذى نزلت به الآيات بألا يكون هناك مزيد من الاسترقاق . وكان مصدر الرقيق هم أسرى الحروب وكانت وصية (؟!)القرآن تسريح الأسرى أو طلب الفدية فيهم : « فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وإِمَّا فِدَاءً » بلا استرقاق .

[أما الموجود من الأرقاء فيتم تصفيتهم بالتدريج إذ جعل القرآن فك الرقبة كفارة للذنوب صغيرها وكبيرها(؟!) وجعلها وسيلة تطهير نفس واقتحام لها «فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ . وَمَا أَدْرَاكَ ما الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ »

[بهذا أغلق الباب أمام مصدر الرق ، وعمل على تصفية الموجود منه . وإذا كان ما حدث فى الدولة الأموية هو

العكس فليس الذنب ذنب القرآن ، وإنما ذنب النظام الذى تفسخ ، وقصور الخلفاء التى تحولت إلى مسارح للمتع الحسية على الطريقة الفارسية] — ص١٧٥ .

وأترك للقراء أن يردوا هذا الكلام إلى مصدره . وألفتهم إلى مواضع التعثر فيما حذف أو غيّر :

جعل تشريع المنّ والفداء وصية ، وهو فى الآية أمر صريح !

وذكر فك « الرقبة » معرفة بأل ، وليس فى القرآن كله إلا « رقبة » ، والتنكير فيها يفيد العموم .

وتورط فأفتى بأن [القرآن جعل فك الرقبة كفارة للذنوب صغيرها وكبيرها] هكذا على الإطلاق ، وذلك ما لم يقله القرآن ، ولا قال به أى مسلم يعلم أن الكبائر لا يكفر عنها فك رقبة . والذى فى كتابى : « كفارة لعدد من الذنوب منصوص عليها فى كتاب الإسلام » .

ونقل الفقرة الأخيرة من المبحث ، فاستغنى عن الإشارة فيها إلى عهد المصطفى وخلفائه الراشدين ، ولاغنى عنها . وتوسع فى إشارتى إلى العصر الأموى ، فذكر [قصور الخلفاء الأمويين التى تحولت إلى مسارح للمتع الحسية على الطريقة الفارسية] والذى يعرفه من له أدنى إلمام بتاريخ الإسلام ، أن قصور الأمويين كانت فى شغل شاغل بفتوح إفريقية

وغزو الروم، وبالقتال فى جبهات : الشيعة والزبيرية والخوارج، وأن غزو المدنية الفارسية لم يبدأ إلا مع الدولة العباسية التى قامت بسيوف الخراسانيين فمكنت لهم من مراكز السلطة فيها والنفوذ ، وفتحت الأبواب لغزو المدنية الفارسية الذى ظل الأمويون يصدونه تعصباً للعربية ، فكان اضطهادهم للموالى ، من الفرس بخاصة ، من أقوى الأسباب التى قضت على الدولة الأموية .

* * *

وفى حرية العقيدة

قدمت الاستقراء الكامل لما فى القرآن من آيات تحظر الإكراه فى الدين وتقصر مهمة الرسول على البلاغ ثم نظرت فى موقف الإسلام من الأديان السماوية قبله « فنراه لايكتفى بالاعتراف لمعتنقيها بحرية التدين ، بل يلزم المسلمين كذلك أن يقروا بنبوة كل الرسل ، ديناً وعقيدة ، لا لمجرد التسامح أو المسالمة ، كما يلزمهم أن يؤمنوا بأن الإسلام مصدق لما بين يديه من رسالات الله .

« ومع اعتراف الإسلام بتلك الأديان المتعددة التى سبقته ، وتقريره أنه مصدق لها ، وتأكيده لمبدأ حرية التدين . .

« مع هذا كله فإنه فى رياضته للبشرية على تحقيق وجودها

الأسمى ، استشرف بها إلى غاية تبدو بعيدة ، وأفسح لها مجال الطموح إلى ما وراء هذا الأمل القريب فى احترام حرية التدين :

« تلك الغاية البعيدة التى رنا كتاب الإسلام إليها ، هى الوحدة الجامعة تلتقى فيها الإنسانية المتدنية على الإيمان بالله ، لاتفرق بين أحد من رسله .

ذلك حين قرر وحدة الأديان بوحدة مصدرها وغايتها ، فالذى تلقاه خاتم الرسل هو فى جوهره ما تلقاه الرسل من قبله .

" مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ "

فصلت : ٤٣

" وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ، وَإِلٰهُنَا وَإِلٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ " .

العنكبوت : ٤٦

ثم يبين منهاج الدعوة إلى هذه الوحدة الجامعة فى مثل آية آل عمران :

" قُلْ يَـٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا

وبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعبُدَ إلاَّ اللهُ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُون اللهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ " . . . .

« ومن تحرير الإسلام ، ختام الأديان ، لعقيدة الإنسان إبطاله سلطة الكهنوتية التى تسلطت على العقيدة الدينية بالقهر والتحكم ، بما أخذت من صفة الوساطة بين العبد المتدين وخالقه ، وما انتحلت من سلطة إلهية تمنح بها صكوك الغفران ، أو تصدر قرار التكفير والحرمان . وذلك ما أبطله الإسلام فلم يأذن لأحد أن يتوسط بين العبد وخالقه :

" وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ " . البقرة : ١٨٦

« كما ليس لأحد أن يوزع بطاقات دخول إلى الجنة أو النار ، أو يحدد لمخلوق مثله مكانه هناك . فهو سبحانه الذى يدرى أين يضع رحمته ، والرسول المصطفى لم يكن له شىء من هذه الحقوق الإلهية التى ينتحلها فينا ناس تسلطوا على خلق الله بكهنوتية أبطلها الإسلام :

" إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ

بِالْمُهْتَدِينَ ". القلم : ٧ ، والنحل : ١٢٥

« ولعل عداء بعض المذاهب المحدثة للأديان ، إنما نشأ أصلا بسبب ما انتحله رجال الدين فيهم من سلطة كهنوتية سوّغت باسم الدين البغيَ والاستغلال وهادنت الرجعية والفساد والطغيان واستنزفت أموال المتدينين الكادحين ، ثمناً للمغفرة أو فدية من غضب الله .

« ومن عجب أن حركة الإصلاح الدينى التى قام بها مارتن لوثر تأثرت بمبادئ الإسلام فى إبطال سلطة الكهنوتية وتحريم صكوك الغفران ، ثم يكون بيننا من يمارس هذا الحق المزعوم فى أمة الإسلام ، فينتحل ما لم يعطه الله أحداً من رسله :

" أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ " . المائدة : ٤٠

" إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ " . النساء : ٤٨

" قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ " . الزمر : ٥٣

« فأنّى لأحد أن ينتحل فينا هذا الحق ، وكتاب الإسلام قد رفع عن الإنسان إصر تلك الكهنوتية ، تقريراً لحرية عقيدته وضميره وعقله : ومما تلقى المصطفى من كلمات ربه :

" قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ " .

" وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا ، وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ " .

" فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ " .

"فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ " .

« وكتاب الإسلام يمضى فى رفض الكهنوتية ، إلى المدى الذى لا يغنى فيه استغفار الرسول للمشركين والمنافقين من قومه :

" اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ، ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ" التوبة: ٨٠ .

وحق الشفاعة عند الله معلق بإذنه تعالى ورضاه ، بصريح الآيات المحكمات .

فإذا لم يأذن سبحانه ، فهيهات لأحد من شفيع ، وهيهات

أن تجدى شفاعة من دونه ....

فأين الإنسانية اليوم من حرية العقيدة التى أقرها القرآن وفرضها منذ أربعة عشر قرناً ؟

« ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ »

(مقال فى الإنسان ٧٥ : ٨٨)

* * *

من أسف أن عطاء هذه الدراسة المنهجية ، قد تبدد فى التأويل العصرى ، فجاء شطرها الخاص بموقف الإسلام من الأديان قبله ، فى فصل (رب واحد ودين واحد)

وجاء الشطر الخاص بإبطال الإسلام للكهنوتية ، مادةَ فصل (لا كهنوت) .

وهما فى الدراسة متلازمان متكاملان ، يتم بهما معاً فهم (حرية العقيدة) .

فضلا عما لحق بها من بتر النصوص وبعثرة الشواهد ، وما أضاف إليها التأويل العصرى من فتاو شرعية ، فى مثل حد السرقة ، وتعدد الزوجات ، وغض البصر ، وتكفير الكبائر بفك رقبة !

* * *

أما مبحث : حرية الإرادة ،

فيشق علىَّ أقسى المشقة ، أن ألمح أى وجه للمقارنة بين دراستى المنهجية لأعقد المشكلات التى واجهت مفكرى

الإسلام ، وبين ما يلقانا فى (مخير أو مسير) بالتأويل العصرى .
من اضطراب التناول وخفة الأسلوب وطيش الأحكام .

وما ظنك بمن يتصدى لعقدة العقد فى الفكر الإنسانى ، بمثل قوله : [ولأن القرآن كتاب دين وليس كتاب فلسفة ، فإنه يكتفى بالومض والرمز والإشارة واللمحة ... فهى تلمح ولا تصرح حتى لا تلقى الناس فى بلبلة .

[ولهذا السبب — لعدم القهر والجبر — أخفى الله نفسه فى الإنجيل وأخفى نفسه فى القرآن ، لأنه لم يرد أن يلجمنا بالتجلى القاطع الفاصل فيقهرنا على الإيمان قسراً .

وضمّن آياته البراهين ، ولكنه لم يجعلها أبداً (!) براهين ملزمة تأخذ بالخناق وتقهر العقل] .

يفتح الله . . . .

لا وجه لمقارنة مثل هذا الكلام ، بعطاء دراسة استوعبتْ أقوال الفرق الإسلامية فى مشكلة الجبر والاختيار ، وعرضتها على القرآن فى استقراء كامل لآيات الإرادة فيه ، هدى إلى الفرق الجوهرى بين مفهوم إرادتنا الكسبية الحرة ، ومفهوم الإرادة الإلهية التى هى حكم نافذ وقضاء مبرم ، يحكم علينا بما أردنا لأنفسنا ، تقريراً حاسماً للتبعة وتأكيداً لحرية إرادتنا وإلزاماً عادلا بمسئوليتها ، وترسيخاً لثبات السنن الإلهية التى لا تتعلق إرادته تعالى بنقضها !

(مقال فى الإنسان ٩٩ : ١١٧)

(٣)

الوجود . . . والعدم

يبدأ هذا المبحث فى دراستى بمدخل من نضال الإنسانية القديم لمقاومة فكرة العدم .

« وجاء عصر الأديان المعروفة لنا والبشرية تجاهد لاستنقاذ إرادة الحياة من دمار التسليم بالعدم ، فبشرتها الأديان بحياة أخرى بعد الموت ، يرتهن مصير الإنسان فيها بما قدمت يداه فى الحياة الدنيا » .

والبشرى مصحوبة بنذير ، صك سمع عُبَّاد الدنيا من عهد ما بعد الطوفان (المؤمنون ٣٣ : ٣٧) .

« ومضت الحياة لاتتوقف ، واستراح الإنسان المتدين إلى رفض فكرة العدم التى تجعل وجوده فى الدنيا عبثاً عقيماً ، كما تجعل رحلته الدنيوية وتكاليفها عبثاً باهظاً لا يُحتمل » .

« وفى كتاب الإسلام ، نستطيع أن نلتمس الكلمة الأخيرة للدين ، فى مصير هذا الإنسان الذى خاض معركته الطويلة المضنية من أجل الحياة ، وأعياه مع ذلك أن يتحدَّى قانون الموت القاهر النافذ ، يسرى على أفضل الرسل وأنبه العباقرة وأنبغ الأطباء وأشجع الأبطال وأعتى الجبابرة ، كما يسرى

على أضأل حشرة هينة هائمة فى الكون الواسع العريض ؛

« والإقناع بحياة أخرى بعد الموت أمر بالغ الصعوبة ، إذ يشق على الإنسان أن يتصور رجعة الحياة بعد أن تفنى الأجسام والذين سبقونا إلى المقابر ، لم يعد منهم عائد يحدثنا عما هناك . والعلم عاجز حتى اليوم عن اقتحام تلك المنطقة الغيبية المجهولة خارج نطاق تناوله . وكل ما يرجف به المرجفون من قول بالعدم المطلق بعد الموت ، لايعدو أن يكون فى حساب العلم نفسه رجماً بالظن .

" وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ، وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ " . الجاثية : ٢٤

« وإذا كانت الأديان تكل المؤمن إلى إيمانه بما جاءت به الرسل من أنباء الغيب الذى لايعلمه إلا الله ، فإن كتاب الإسلام الذى ختمت به الرسالات الدينية إيذاناً بأن البشرية بلغت رشدها ، يقدر حاجة الإنسان إلى برهان يقنعه بالحياة الأخرى . ويتوقع جدله فى هذه المسألة الغيبية

« وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً »

(مقال فى الإنسان١٢١ : ١٢٤)

من هذا المدخل ، كان منطلقى إلى :

جدل فى البعث :

استقرأت فيه ما تلا علينا القرآن مما أثير من جدل حول البعث : « ثم لم يدع شبهات الذين أنكروه تمر ، مكتفياً بأن يكل الإنسان إلى إيمانه ، بل حرص على أن يرد تلك الشبهات بالمنطق الذى تطمئن إليه الإنسانية دون أن تحتاج فيه إلى أكثر مما تهيأ لها من إلهام الفطرة وهدى البصيرة ووسائل التأمل والنظر كيلا يكون الاطمئنان وقفاً على زمان بعينه أو مرتبطاً بظروف وأحوال خاصة لاتتاح لكل إنسان .

« وأقرب ما يلفتنا إليه كتاب الإسلام ، ما نراه فى الواقع المشهود من حياة الأرض بعد موتها ، وما نبصره بأعيننا من خروج الحى من الميت وخروج الميت من الحى ، توطئة للإقناع بأن الحياة بعد الموت ليست من المستحيل العادى فضلا عن أن تكون من المستحيل العقلى :

" وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا لَمُحْيِى الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ " فصلت : ٣٩

" يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَيُحْيِى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ " .

الروم : ١٩

وليس هذا فحسب ما يقدمه الدين فى كتاب الإسلام ليطمئن قلب الإنسان إلى إمكان البعث ، بل إنه يضع كذلك أمام بصره وبصيرته ، وحسه ووجدانه ، آية القدرة الإلهية المعجزة خلق الإنسان أول مرة ، فلن يعييها أن تعيده مرة أخرى ، وذلك أهون .

« وتوشك الآيات القرآنية فى خلق الإنسان ، أن تكون فى الغالب الأعم موجهة ، لا إلى علوم البيولوچيا ، بل إلى الاستدلال بهذه النشأة الأولى على إمكان النشأة الأخرى .

ومن هذه الآيات ما يأتى فى سياق الرد على الكافرين فى هزئهم بنذير الآخرة :

" بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ، ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * " .

" أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ، بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ " .

ق : ٢ - ١٥

" وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ " .

" ولقد عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ " .

الواقعة : ٤٥ ، ٦٢

" وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيدًا * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ، قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ " . الإسراء : ٤٩

« ومنها ما يأتى دفعاً لحيرة الإنسان فيما يشغله من أمر تلك الحياة الآخرة التى أكدتها الأديان ، وما يجهده من التفكير فى تصور إمكان تحققها :

" وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا " . مريم : ٦٦

" أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّىَ بَنَانَهُ " .

" أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِىٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِىَ الْمَوْتَى " القيامة

" فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ "
الطارق

" أَوَ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ " . يس : ٧٧

« بهذا المنطق ، يقدم البيان القرآني إلى الإنسان ، الآيات الشاهدة على أن الذي خلقه أول مرة ، قادر على أن يعيد خلقه مرة أخرى . فإذا شق على الإنسان أن يتصور حياة بعد موت ، فليتأمل في الكون حوله ، ير شواهد من الواقع الحسي ، في الأرض تحيا بعد موت ، وفي الكائنات الحية تخرج مما يبدو لنا هامداً ميتاً .

« لكن هذه الآيات إذا أقنعت الإنسانية المتدينة التي تؤمن بخالقها فقد بقي هناك مجال لما يثير الملحدون من جدل في أن الله هو الذي خلق الإنسان أول مرة ؛ ولا يسكت القرآن عن هذا ، بل يقدم برهانه الذي يجلو الريبة ويفحم المنكر .

والسؤال الذى عرضه كتاب الإسلام بصيغة التحدى لكل منكر أو مرتاب هو :

" أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَم هُمُ الخَالِقُونَ " ؟

الطور : ٣٥

ثم نزلت آية الحج المدنية ، فضربت للناس المثل الصادع ، وساقت البرهان المفحم :

" يَـأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعُوا لَهُ . إنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإنْ يسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ "

« ولقد مضى على الناس منذ ضرب لهم القرآن هذا المثل ، أربعة عشر قرناً : ارتاد فيها الإنسان من مجهول الآفاق ما ارتاد ، وتابع نضاله الباهر العجيب فى كشف ألغاز الوجود وأسرار الكون ، وغزا الفضاء وأوشك أن يهبط على القمر [١] .

وما يزال المثل القرآنى يتحدى كل جبروت الغزاة وعبقرية العلماء . وما يزال على الذين غرهم الغرور بما حقق إنسان

---

(١) هذه الدراسة القرآنية ، نشرت أول عام ١٩٦٩ ، قبل هبوط « أبولو » على سطح القمر .

العصر الحديث من منجزات العلم ، أن ينسخوا ذلك المثل بأن يجتمعوا فيخلقوا ذباباً ، أو يستنقذوا شيئاً سَلَبَتْهم إياه هذه الحشرة الضئيلة التى تقتلهاذرة من هواء مشبع بمبيد للحشرات ، وتستطيع مع ذلك أن تسلب مخترع المبيد حياته ، بلمسة هينة خاطفة تحمل إليه جرثومة داء مميت » .

(مقال فى الإنسان ١٢٥ : ١٣١)

هذا العرض فى سياقه المنهجى الذى يطمئن به مكانه فى قضية البعث من مبحث الوجود والعدم ، تناثر مشتتاً مهلهلا فى فصلين من التأويل العصرى : (البعث ، وإعجاز القرآن) مع بهرجة من كلمات عصرية خلابة ، وحشو من بدع التأويلات المقحمة على القرآن وعلى العلم معاً !

فلأقف عند الفقرة الأخيرة التى نقلتها هنا من كتابى ، لأعرض عليها ما يقابلها من التأويل العصرى :

[فإذا لجأ القرآن إلى الجدل فهو يجادل فى بساطة ويقيم الحجة فى إحكام . يقول عن الكافر الذى لا يصدق أنه يبعث . «وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » .

«أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيد » .

[وليبرهن على وجود الخالق لايلجأ إلى صفحات من الحذلقة الفلسفية ، وإنما هو مجرد سؤال يوقع به الكفار فى إشكال : «أَمْ خُلِقُوا مِن غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ »؟ فإذا أراد أن يفحم ويلجم ألتى بمثل آخر .

«يَـأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ » .

[وهو مثل ما زال معجزاً للعلم والعلماء بعد ألف سنة من تطور العلم والتكنولوچيا (؟ !) فمن يستطيع أن يخلق ذبابة على هوانها وتفاهتها . وإذا سلبتك الذبابة حياتك بمرض تنقله إليك فمن يستطيع أن يرد لك تلك الحياة . بل إنها لو سلبتك ذرة من النشا من طعامك فإن عباقرة الكيمياء لو اجتمعوا لا يستطيعون استرداد هذه الذرة من أمعائها لأنها تتحول فوراً إلى سكر بفعل الخمائر الهاضمة . فما أضعف الطالب والمطلوب .

ما أضعف عبقرى الكيمياء وما أهون الذبابة وما أتفه ذرة من النشا . بهذه البساطة المعجزة الملغزة ، يتعرض القرآن لأعقد القضايا فيوصلها لأبسط الأذهان] ص ٢٠١ .

* * *

وهنا أيضاً خانه الحرص فيما حاول أن يغير من عبارتى . فتورط فى عثرات من التدليس :

نقل هذا الكلام من مكانه فى (جدل فى البعث) من مبحث الوجود والعدم ، إلى فصل . . . (إعجاز القرآن !)

وجعل آية يس : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ » قولاً عن الكافر ، والآية فى سياق الحديث عن الإنسان بعامة .

واستبدل بعبارتى فى المثل القرآنى « ما يزال بعد أربعة عشر قرناً منذ ضُرب للناس ، يتحدى كل جبروت الغزاة وعبقرية العلماء » عبارته : [وهو مثل ما زال معجزاً للعلم والعلماء بعد ألف سنة من تطور العلم والتكنولوجيا]

ولا أعلم أن العلم والتكنولوجيا ، تطورا منذ ألف عام ، أى فى القرن التاسع الميلادى ، من صميم العصور الوسطى!

وما قلته فى منطق البيان القرآنى لدفع الشك فى البعث ؛ « يثبته النظر الحر والبصيرة المميزة والتأمل الواعى ، دون أن يحتاج فيه الإنسان إلى ظروف خاصة أو وسيلة خارجية إن أتيحت

لعدد من الناس فى بيئة معينة أو عصر خاص ؛ فليست بحيث تتاح لكل إنسان على اختلاف المستويات الحضارية والعلمية »

أعاد صياغته وأضاف إليه ما لم أقله من صفة الإلغاز :

[بهذه البساطة المعجزة الملغزة يتعرض القرآن لأعقد القضايا فيوصلها لأبسط الأذهان] .

وجاز عنده أن توصف البساطة بالإلغاز ، وأن يكون الإلغاز سبيل توصيل أعقد القضايا إلى أبسط الأذهان !

* * *

وعلىّ أن أكتفى الآن بما قدمت من مقابلة كاشفة لعثرات التدليس بجهالة ، وأخطاء النقل الغافل عن المغزى والسياق .

فلأختم هذا العرض بنكتة لطيفة :

فى دراساتى القرآنية ، يبهرنى البيان المعجز وتأسرنى ضوابط المنهج ، فقلما أتعلق بإيراد شعر .

غير أن « مرثية أبى العلاء » الدالية ، خطرت على بالى وأنا أدرس قضية الإنسان فجئت بأبيات منها فى مبحث (العـَرَض والجوهر) من مقال فى الإنسان ، على ندرة ما أفعل .

ولم أعجب حين جاءت الأبيات نفسها فى التفسير العصرى الذى لا مجال فيه لشعر ، منقولة إلى أول فصل (لا إله إلا الله) !

مع تعثر فى نقلها أخلّ بنسقها الشعرى ، ومع خطأ نحوى أفسد المعنى !



اللهمَّ فاشهدْ !

«أفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ
مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفاً
كَثِيراً » صدق الله العظيم

(سورة النساء)

أخذ بعض الناس بكلمات خلابة من التأويل العصرى ترضى وجدانهم الدينى . ويسأل سائلون منهم : ماذا علينا لو قبلنا منها ما يرضى عقيدتنا ، وتجاوزنا عما يخالطه من بدع التأويل ومدسوس الإسرائيليات ؟

* * *

من واجبى أن أستخلص لهم مما قدمتُ من شرح للقضية ، بعض ما أقدر حاجتهم إليه ، ليتدبروا ما يقدم إليهم باسم القرآن ، ومنطق العلم ، وروح العصر .

ليس لى أن أجادل فيما جاء فى التفسير العصرى ، من [أن النبى الأمى لم يكن يعرف لاهو ولاقومه ولاعصره ، معنى كلمة بيولوچيا وچيولوچيا وكيمياء عضوية وعلم أجنة وتشريح وأنثروبولوچيا] ص ٤٨ .

ولا أخوض كذلك ، فيما غاب عن عصر المبعث ومدرسة النبوة ، من مُحدَثَ التأويل لما جاء فى [ذلك القرآن المذهل الذى أتى به رجل أمى لا يعرف القراءة ولاالكتابة ، بدوى راعى غنم فى بيئة بدوية ، من أجلاف البدو فى صحراء جرداء منقطعة الصلة بالحضارة والعلوم] ص ٢١٤ .

بل ما ينبغى لى أن أجحد حق الدكتور المفسر فى هذا التأويل العصرى لآيات كشفت له من قصة الخلق عما لم تكشف للنبى الأمى وعصره ، فى بيئة بدوية لاعلم لها

بالبيولوجيا والأميبا والرخويات والقشريات التى تطور فيها آدم الثانى بعد طرده من الملكوت مجرد جرثومة فى الطين، احتاجت إلى آلاف الملايين من السنين، لينتصب فيها هذا الآدم الثانى على قدميه، فتبدأ حياتنا الثانية بعد تلك الأولى التى كانت لنا فى الملكوت قبل النزول فى الأرحام!

كما لا ينبغى لى أن أجادل فى أن النبى الأمى، لم يبين لأمته من آية يس «والْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنَازِلَ حتَّى عادَ كالْعُرجُونِ الْقدِيم» ما فى تأويلها العصرى من إشارة إلى جيولوجيا القمر الذى هبطت عليه أبولو، وأن يربط — عليه الصلاة والسلام — بين «سبع سماوات» وبين ما فى التأويل العصيرى من كلام عما [كشف العلم من أن الضوء سبعة ألوان هى ألوان الطيف، وسبع درجات من الأطوال الموجية من الأحمر إلى البنفسجى ... وبالمثل السلم الموسيقى سبع درجات ثم تعود الثامنة فتكون جوباً للأولى وهكذا] ص٦٢.

فضلا عن أن يكون النبى الأمى قد فهم أن حملة العرش فى اليوم الآخر، بآية الحاقة، يمكن أن يكونوا [قوى كهرمغنطيسية] أو أن آية آل عمران: «ولَهُ أَسْلَمَ من فِى السَّمٰواتِ والْأَرضِ طَوْعاً وكَرْهاً».

تتعلق بما عرف المفسر العصرى من [قوانين: الضغط الأزموزى،

والتوتر السطحى . وتماسك العمود المائى ، والتوازن الكهربائى والأيونى فى المحاليل ، والتفاضل الكيميائى ، ورفض الفراغ ، ورد الفعل . . . .] .

ذلك كله وأمثاله معه ، بعيد عن النبى وعصره ؛ وإنه لبعيد كذلك ، أقصى البعد ، عن تلاميذ المدرسة القرآنية ، فلنتركه للطبيعيين والرياضيين ليروا ما إذا كان شىء من هذا مما يصح فى علمهم ويجوز عند علماء العصر الحديث !

* * *

لكن ماذا عن أسرار البيان القرآنى ؟

أيكون المصطفى والعرب الفصحاء الأصلاء فى عصره . لم يدركوا منه ما يدركه مفسر عصرى ، يستوى عنده الأعشى والمنصرف ، ويعد من إعجاز القرآن أنه أنث لفظ العنكبوت ، وأنه ذكر « العير » فى قصة يوسف ، بدلاً من « الحمار » فى التوراة ، لأن العير معناها الإبل ؟

هل يكون لمثل هذا المفسر العصرى ، أن يهتدى إلى ما غاب عن النبي القرشي والعرب الفصحاء ، من لغة كتاب عربى مبين ، وأسرار بيانه ، وإن الطفل البدوى من عصر المبعث ، ليدرك أن العرب أنثوا العنكبوت من قديم وثنيتهم الجاهلية ، وأن العير فى أصل استعمالها لقافلة الحمير ، والعَيْر الحمار الوحشى ؟

الذى لانجادل فيه : هو أن المصطفى والعرب فى عصره ، لم يفهموا من البيان القرآنى ما جاء فى التأويل العصرى عن : الموسيقى الباطنية للقرآن (ص ٩) وذبذبة حروفه ، والسيمفونية السباعية لسورة الفاتحة (ص ٩٣) وفورم المعمار القرآنى (ص ١٦)

ولم يتصوروا أن المثل القرآنى للحياة الدنيا : [نذير بأن كل هذا العالم ديكور من ورق اللعب ، ومدينة مزيفة مصيرها أن تفك وتعاد إلى علبتها] ص ١٨٦ ولا خطر ببالهم أننا [كلنا مجرد صور تبرق وتختفى على شاشة الوجود كما تتجمع الصور على شاشة التليفزيون ثم تتبدد وتزول عند انقطاع التيار ثم تعود فتتجمع صور أخرى عند وصل الكهرباء] ص ١٨٣ .

ذلك كله ، ومثله معه ، من عصرىّ الصورِ والتشبيهات التى لم يعطها البيان القرآنى للنبى وعصره وبيئته .

لكن الذى لا يصح فى العقول ، هو أن يفهم مفسر عصرى ما لم يفهمه النبى القرشى والعرب الفصحاء ، من لغة هذا القرآن وبيانه وأحكامه، ومن ثم يتصدى للفتيا فى أحكام الشرع ، بغير ما بينه المصطفى وعرفه الصحابة وأئمة الفقه الإسلامى !

كالذى نقلتُ من تفسيره للنعلين بالنفس والجسد، والقرين الملائكى . ومثل فتاويه فى الحلال والحرام ، يعطل بها حدود الله، ويلغى قانون السببية ، وهو من السنن الكونية الثابتة !

— ويؤكد القرآن فى عشرات الآيات ، أن الله سبحانه هو

الذى يحاسب عباده « فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » .

ويفتى المفسر العصرى فى الحساب والعذاب يوم الآخرة :

[حتى الحساب هنا يبدو أنه حساب النفس . تعالى ذو الجلال أن يحاسب أمثالنا وأن يعذب أمثالنا] ص٨١ .

— ويقول تعالى لبنى آدم ، تحذيراً من فتنة الشيطان :

« إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم »

ويقول المفسر العصرى :

[وفى هذه البشرية من رأى الجن والملائكة والشياطين شهوداً] ص١٢٢ .

— ويقول تعالى لنبيه المصطفى :

« وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون »

« وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

وفى التأويل العصرى : [أنه — سبحانه — سوف يشرحه ويبينه فى مستقبل الأعصر والدهور] ص ٤٩ :

[ثم إن الوحى يلقى عليه فواتح السور ماهو أشبه بالشفرة والألغاز مما لم يقل لنا النبى إنه يعلم له تفسيرا . . . . وإنما هى بعض التحديات التى تحدانا بها القرآن ووعدنا بأن يأتى تأويلها فى آخر الأيام] ص ١٩٦ .

— ويقول تعالى :

« كتاب فصلت آياتـه قرآناً عربيًّا لقوم يعلمون »

ويؤكد التأويل العصرى ، عشر مرات أن القرآن يتحدث بالشفرة والرمز ، والألغاز المطلسمة (ص ٢٦ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٨٩ ، ١٢٦ ، ١٣٧ ، ١٦٨ ، ٢٠٢)

— ونتلو من الآيات المحكمات خطابا للمصطفى :

« قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضرًّا إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيبَ لاستكثرتُ من الخير وما مَسَّنِىَ السوءُ ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » .

ونقرأ فى التأويل العصرى أن القرآن يخبر [عن غيب محجب مطلسم لم يكشف إلا لقلة من المخصوصين من أهل التصوف] ويتبرع الدكتور المفسر فيقدم لك وصفة للحظوة والوصول ، [وحينئذ يتفضل عليك الله كما يتفضل على أحبابه وأوليائه ، فيفتح بصيرتك لترى الملائكة شهوداً وترى الغيب حضوراً وتسمع ما لا أذن سمعت] ص ١٣٩ .

* * *

أقول الحق : لقد تحيرت مع هذا التأويل العصرى ، فحيث يقول مرات : إن القرآن ليس كتاب علم (ص ٢٦) ولا كتاب فلسفة ولا سياسة : (١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٣٨ ، ١٦٨)

يؤكد فى مواضع أخرى :

[إن التوحيد نشأت منه كل أعداد المعارف والعلوم] ص ٣١٩

[وهو يدلك على علوم لم تعلم بعد . . . ويقدم إليك حكمة الأزل ودستور الحياة وفلسفة فى الأخلاق والحكم واللاهوت وما وراء الطبيعة . وفى المعاملات والحرب والسلم و . . .] ص ٢٠٦ .

[وفواتح السور علوم علياسوف نصل إليها فيما بعد] ص ١٩٥ .

[وتتسابق العلوم فلا تكاد تلحق بأذيال القرآن] ص ٢١٣

وحيث يقول إن الاجتهاد فى أمور الدنيا مباح ، لكنه فى أمر غيبى [أكبر خطأ يتورط فيه قارئ القرآن : فضلا عن أنه ليس فى مقدورنا] ص ١٤٥ .

يؤكد غير مرة ، أن فى هذه البشرية من علم الغيب شهوداً ، ويلقانا بتأويلات موغلة بنا فى مجاهل من حياة كانت لنا قبل النزول فى الأرحام ، إلى غيب الساعة واليوم الآخر .

* * *

ألا ليت الدكتور أخفى ما كشف له من أسرار غيبية وفتوح ربانية : وسلك مسلك الصوفية الذين قال فيهم :

[ويُخفى الواحد منهم كراماته كما يخفى عورته ، لأنها السر الذى بينه وبين ربه ، وعلامة المحبة والخصوصية والقرب . وما بين المحب والمحبوب لايصح إفشاؤه وابتذاله . وقانونهم : الذى يتكلم لا يعرف ، والذى يعرف لايتكلم . . . وما أندر هؤلاء الربانيين فى هذا الزمان] ص ١١٠

وبعد، فقد تصديت لهذه القضية ونشرت فيها ما نشرت ، وأنا أتوقع سلفاً ما يواجهني من سخط الذين يرضيهم أن يفهموا كتاب الإسلام كما يبينه لهم مفسر عصرى ، يخايلهم بما لم تعرف مدرسة النبوة من غيب الساعة والحياة الآخرة ، وما لا عهد لها به من نظرية التطور وچيولوچيا القمر وديناميكا الصلب ، والإلكترون والكهرومغنطيسة ، وفن الديكور والسيمفونى والمعمار .

ويفتيهم فى الحلال والحرام بما يعطل حدود الله ويلغى قانون السببية .

لكنى توقعت مع ذلك أن تمس كلماتى ضمائر من يؤمنون بكرامة العلم وحرمة القرآن ، وأشهد لقد تلقيت من رسائل التأييد ، مالا أذكر أنى تلقيت مثله على طول عهدى بالكتابة فى قضايا الفكر الإسلامى .

ولولا أنى آخذ بمبدأ « القضايا لا الأشخاص » لسرنى حقاً أن أذكر أسماء الذين تفضلوا فكتبوا إلىّ ، وأن أنقل هنا نص الخطاب الذى تلقته « إدارة النشر بمؤسسة الأهرام » من دار النشر والتوزيع فى الخرطوم : ترجو فيه طبع مقالاتى ، فى التفسير العصرى ، فى كتاب تحجز منه لقرائها فى السودان ثلاثة آلاف نسخة . . .

وقد كان اعتزازى بحسن رأيهم فىّ ، وتقديرى لموقفهم معى ، مما جعلنى أعجل بنشر هذا العرض الموجز للقضية ،

قبل استكمالها بما يشغلنى الآن من (دراسة للقاديانية والتفسير العصرى) تكشف عن مسار هذا التيار الجائح الذى يستبيح تأويل كلمات الله بغير علم ولا هدى .

ولعل أخطر ما تتعرض له الحرية . هو أن نحجر على حق متخصص فى أن يرفض فتاوى غير المتخصصين وتدليسهم ، وأن يقول : لا ، فيما يستبيحون لأنفسهم من امتهان لكرامة عقولنا. كما أن أخطر ما يزيف العصرية ، أن تطارد وصمةُ الجمود من يرفض فوضى الإباحة لأقدس الحرمات ، وأن تتخذ العصرية قناعاً لشهود الجن والشياطين والملائكة عياناً ، وعلم الغيب شهوداً !

بروح عصرنا ، تدرك أمتى أن أى علم يلتمس من مراجعه الموثقة ، ويؤخذ من علمائه المتخصصين .

وبإيماننا بالعلم ، ندرك أن عصرنا يفكر عاميًّا بعقلية الغد وطموح التطور ويرنو إلى عصر ما بعد الوصول إلى القمر ، أما الدين فنفهمه نقيًّا بمنطق العقيدة التى لا تتغير مبادئها بتغير الزمان والمكان ، لأن الدين ثابت فى جوهره وأصله ، وقيَمه ومُثله .

وأعلم أن ابنتى المتخصصة فى الرياضيات ، تشتغل فى دراستها الجامعية العليا بتعديل « نظرية أينشتاين فى النسبية » حين لا أطمح إلى أن أخرج من طول عكوفى على الدراسة

القرآنية : بأكثر من محاولة فهم القرآن نقيًّا أصيلا كما بينه خاتم النبيين المبعوث بهذا القرآن ليبينه للناس .

وكبُرت كلمةٌ يقولها مفسر عصرى ، فهم من القرآن أن [جبريل يمكن أن ينزل إلى الأرض فى أية صورة ، ويحمل الوحى إلى أى نبى فى أى عصر وبأية لغة] :

فهل بلَّغت ؟

اللهم فاشهد ، والسلام على من اتبع الهدى ....

فهرست

صفحة

رقم الإيداع	١٩٩٩/٢١٣٧
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5735-4

١/٩٨/١٢٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

